إلهام بوصفارة مسيوغة

رواية

عنوان الكتاب: صهيل الصمت

الكاتبة: إلهام بوصفارة مسيوغة

نوع الكتاب: رواية

النّاشر: الثقافية للنّشر و التوزيع المنستير تونس

الطبعة الأولى: 2006

الطبعة الثانية: 2017

جميع الحقوق محفوظة للنّاشر

# تصدير

ربّ عبارة رائعة أقرأها في كتاب ،فإذا بي أمتلئ نشوة عجيبة و طربا غريبا تشوبهما لذعة الحسد كما لو كنت صاحبة العبارة قد انتزعت منّي سطوا. وتنبري تدغدغ فيك "الحسّ" بشفافيتها وتأسر فيك القلب بوقارها وطيشها وتغريك بالخروج من كهف الصمت وخوض المغامرة..

هكذا كانت حكايتي مع الكتابة .

# الإهداء

إلى طيف يصول ويجول في أرجاء النفس يذيب الثلج المتراكم على سطح الذاكرة يبحث عن ضوء ينير له درب الحقيقة:

إلى صمتي ..

## في الغسق..

اعتدلت على فراشها وقد أسندت ظهرها إلى وسادة ورفعت ركبتيها إلى صدرها وكتبت على دفترها:

{جلست على مكتبها تقلّب بصرها بين الكتب المبعثرة حولها وبياض الورقة المثير يصرخ في وجهها ها أنا اغتصبيني.. مدّت يدها تلمسه في تمهّل ولّد الشهوة بينهما واستفزّ صمتها..

تحبّ أن تكتب إليه بعد أن وصلها ديوانه ، حطّت رحالها على كلماته الولهانة وراق لها قصيد ردّدته بصوت مسموع:

كانت هناك
ترشُف فنجانها
وتمتصّ أوهامها
وكان قبالتها
ينشق رحيق أشعارها
وينفث أفكاره في سيجارة
يرسلها إليها
حروفا من دخان

ذوّبتْها في فنجانها
وشربتْ من ريقه
جرعة حبّ
جشّأتْها رُعبا..
ما كانت تعلم أنّه شيطان الشعر
قد غواها..
وضاجعها في تخت ضبابي
تحلَّقتْ به عرائسُ المروج
قوابلُ تفوحُ منهنّ ريحُ البَخور..
أطلَقْنَ أياديهنّ يتلَقّيْنَ المولود
ضجّتْ أذنها بالزغاريد
خطوة.. خطوتين
أطلّ ظلّه
قمّط الوليد
سمّاه ومضى
لمّا أفاقت
سألتْ ورقتها
عماّ جرى..

وجدت لهذه الكلمات صدى في ذاكرتها ، فأوجعها صهيل خيولها. ما ظنّت أن صهيل الذاكرة مازال يخزها ويدغدغ فيها الحنين إلى الشعر ويذكّرها بأنها امرأة تعشق قصائد العشق..
تحبّ أن تكتب إليه بعد صمت مديد لتجيبه عن سؤال دفين عاش مخاضا عسيرا قبل أن يضع إجابة خرساء بكماء تتخذ الرمز لغة والمجاز خيلا تمتطيها إلى عالم الذكريات باحثة عن شفاء عليل.
سألها يوما" هل مازلتِ واهمة ؟" بعد مسيرة بحث طويلة وهي تبحث في دفاترها القديمة عن إجابة شافية أدركت أن السؤال نفسه وهم وأن البحث عقيم لأن الحقيقة والوهم كالبياض والسواد وأنه هو الموهوم.
و جميل أن تجد الإجابة بعد دهر طويل لترسلها إليه مضمّخة بعطر الماضي لتقول له إنه تفاحة الشعر ، تفاحةٌ مفلّجة يطيب لحواء أن تقضم منها وتسعد بسحرها رغم اللعنات ،إنه شيطان العشق يدعو إليه ويبني عالمه بكل جوارحه و يغوي الناس بتجربته ثم ينكره فيه,إنه طائر مهاجر من قلب إلى قلب يبحث عن السكينة في كل وجه فليس واجدَها,لأن أجنحته من الشّعر المثقل بثمرات الألم,إنه يشتعل ثلجا ويصهل وجعا وينْظِم النثر هربا..

لتقول له أسفا ، أ س ف ا... أنت تخلط بين الحب والشّعر ، وهذا هو جوهر الوهم ومربض العلة.. وأعف نفسك من سؤال أخرس تجد له إجابة في آلامك.. حذار ، فاليوم يرتدّ إليك الوهم ملثّما بالشّعر.

نظرت حولها تبحث عن قلم على مكتبها تخطّ به هذه الإجابة الصامتة ، وجدته ملقى على الأرض تحت قدميها فانحت تلتقطه ولمّا استوت على كرسيها واستقامت في جلستها وهمهمت بالكتابة تبخّرت أفكارها ولم يبق منها سوى وخز خفيف متلاحق.. فلم تقل.

هكذا الأفكار في كلّ مرة ، كفرس جموح لا ينثني يصهل في نفسك حرا طليقا يرتع فيها شرقا وغربا وكلّما حاولت أن تلجمه وتحبسه في قفص الكتابة يولّي عنك هاربا ويختفي كما لم يكن.. ولا يبقى في أذنيك إلا صدى الصهيل..

رمت بالقلم فتدحرج مجددا نحو الأرض واتخذ تحت قدميها مقرّا. ارتخت على الكرسي وطفقت تفكر في الفراغ الذي يحيط بها ، لكن الأفكار تذهب بها بعيدا فتوصلها إليه من جديد..

كم أحبّت دوما أن تلقاه لقاء بريئا لا تشوبه الأوهام ولا تفسده الأحقاد ، أن تلقاه صدفة فيتصافحان مصافحة الزملاء ويمحوان ما سجله الماضي من أخطاء هدت آمالهما. أجل ،

كان بيدهما أن يحوّلا الماضي من نقطة ضعف مؤلمة إلى نقطة قوة مخصبة..

حملقت في الديوان المنتصب أمامها والبياض الصارخ في وجهها يغريها بوصل الماضي ولم يسعها إلاّ أن خربشت بياض الورقة بظفرها لتُخرسه متمتمة:"لا أستطيع لا أستطيع."

وراق لها الاسترخاء بعد أن لفّتها الذكريات فتذكّرت يوم ابتسم لها وقال:"أحبّيني ، أحبّي طفلا خلق منك آلهة ثم اشتهاك فتوسّدك.. " لم تفقه حينئذ ما الذي حملها على البكاء ، كادت تسعد لقوله لولا شيء ما وخزها ، أوجعها فلبست قناع الصمت علّه يدثرها ويستر ما تعرّى منها. وهرعت إلى البيت تدوّن كعادتها صمتها الذي لم تجرؤ على تمزيق ردائه ، كتبت يومها في دفاترها:

"تتمايل كلماتك تيها وعجبا وتتشامخ على صمتي الأخرس.. أعدِمْ به من صمت يلجمني أمامك في حين يحادثني ويخطّ عباراته على بياض قلبي وأخطّها بدوري على ورقي في صمت.."

تذكر يومها أنّ صباح المدينة كان بلا معنى وقد التفّ حولها شبح القلق والضجر ، وللقلق وجوه عدة لعلّ أبشعها أنه يهدم الذاكرة في لحظة. وعصف بها القلق عصفا وفصلها فصلا عن ماضيها.. وإذا شخصها المألوف المعهود مدى السنين بتوازنه الثابت وتريّثه الجميل محض وهم لا يعنيها ولا يغنيها وكأنّها

إزاء ماضي غيرها.. وانتصب لها المستقبل شبحا كالموت مخيفا ، خصما لدودا ، تنهار أمام تحدياته وتودّ لو ساخت في الأرض خوفا من مواجهته..

يومها تعمدت أن تجلس في الشرفة على كرسي متأرجح محتضنة معطفها كمن ينتظر موعدا ويتأهب للخروج. وبين الحين والآخر تطلق زفرات الانتظار وإلى جوارها قلم ودفتر وهاتف.. حاولت أن تغمض عينيها وتناجيه ، عندئذ أحسّت بالشمس تلفّ قلبها بردائها الناعم وتمسح عنه بصمات القلق وتشحنه بروح التحدّي. وأسفر فمها عن ابتسامة عريضة حتّمت عليها قراءة المجهول ، واهتزّ جسمها وقد انتابته قشعريرة اللذة ، لذّة التحدّي ، لذّة الرغبة في أن تقصّ حكايتها على كل من عانق الحكاية ، على كل العشاق ، على كل الشعراء وعلى الزمن الذي بعثر حكايتها وفقد الذاكرة..

لذة المواجهة دون ذرف الدمع.. هي الآن أمام ثلاثة خيارات إمّا أن تتناول قلمها وتكتب رغبتها في الرحيل بأصابع ثابتة وترسلها إليه على البريد السريع وإمّا أن تمسك بالهاتف دون تردّد وتبوح له بكلّ ما كتمت زمنا طويلا وإمّا أن تحمل معطفها وتوقف أرجوحتها وتلقاه لتقول له: "علّمتني كيف أكون ولمّا كنت.. اعتراني الصمت وصار الفراق ". وكان الخيار الثالث أقرب إلى طبعها وأحقّ باللذّة من غيره ، إنها تتحدّى

نفسها وتتحدّى صمتها الذي طالما أذلّها وجعلها قصيدة للشعراء ونغما للّقاء..

مشت في شارع "الكوليزي" غير بعيد عن مبيتها الجامعي ، إلى منزله ، مكان لقائهما كلّما دفعتهما الشهوة أو الشعر إلى اللقاء. كانت تلتهم الأمتار بخطى واسعة تستبق اللحظة الرّهيبة قبل وقوعها وفي نفسها وجس من أن تفشل في مهمتها العسيرة وأن يخذلها عزمها وينتصر عليها صمتها وتخاف أن يستقرّ الحوار في عينيها وليس أشدّ من الخوف إلاّ الخوف منه..

بدا لها الطريق طويلا يأبى أن ينتهي ويصل بها إلى نهاية المطاف. رفعت رأسها إلى السماء.. لمَ السماء جميلة اليوم إلى هذا الحدّ؟ أ لتشعرنا بمدى شقائنا على الأرض وتزيدنا يقينا أن ليس أخطر على الإنسان من نفسه التي تهمّ أحيانا لفرط عداوتها لذاتها أن تدمّر في لحظة ما أفنت العمر والجهد في اكتسابه؟

النفس.. ما أثقل العبء يكابده الإنسان صباح مساء.

وجدته في ذاك الصباح متّكئا على أريكته يتصفّح جريدة وقد انتشرت في مكتبه بعض الأغاني الشرقية الهادئة. وبرؤيتها أجهز على فنجان قهوته مرحّبا بها في شيء من التثاقل. جلست قربه ولم تقو إلّا على الابتسام باحتشام كاذب مجاراة لصيغة الترحيب التي لا تقل نفاقا عن ابتسامتها.. نظر إليها

باندهاش وكأنه تفطن إلى الرغبات المجنونة والوساوس التي تضعضع الكيان وتهدّه هدّا فبادرها قائلا كمن يمزح وهو يسكب لها قهوة ببطء وبيد أنيقة لطالما أتقنت فنّ الضيافة أفضل من كلماته:

-"ما شعرت بالحيرة إلا أمام من يبتسم في وجهي ".

صمت قليلا ثم واصل:

-"غريب أن أراك في مثل هذا الوقت.. الصباح لا يناسبنا".

في لحظة كادت تجيبه " من منّا في باطنه يحبّ حقيقته التي يكون عليها في الصّباح.. فيه تُخلع الأقنعة كما تَخلع الصبية صباح كل يوم قناع المساحيق الذي يواري ما انتشر على وجهها من بثور. "

ثم تردّدت. ولم تجد شيئا آخر تعلّق به على كلامه سوى الصمت.

وراحت تتأمّله للحظات وهو مشغول عنها بلمّ أوراقه المبعثرة هنا وهناك على الأريكة وعلى المنضدة وفي حركته شيء من العنف المهذب..

وطال الصمت بينهما. فلم تمنع نفسها من التعليق في نبرة شاردة كأنها تخاطب نفسها:

. الصمت.. محنة الصمت وذواتنا في غمرة الكلام. ترى كيف يظهر غيب الشعور وأنّى يدرك بغير الكلام؟ و لا سبيل إلى

الكلام ! إنّها النقمة أن يكون الكلام فينا قويا متدفّقا حتى لنضيق به ونكاد ننفجر من دفقه ثم لا يبدو لغيرنا منه إلا وجه فاتر لا يعني شيئا.. ظل باهت لا خير فيه..

قال دون أن يرفع رأسه عن أوراقه:

- الصمت ثراء مثير يربو بك إلى منزلة التميّز.

- أجل ثريّ ولكن الكلام أنصف **وأشفى**.. ألا ترى أنّ الصمت مهما تستّر وتمنّع حاجته إلى الكلام كحاجة الحسناء إلى المرآة بل كحاجتها إلى المعجبين والهواة..

لم يجبها ودخل إلى غرفته يغيّر منامته.

لملمت شتاتها واستجمعت قواها بعد أن أسكرتها كلمات أغنية لبنانية تصل إلى أذنيها كالصدى البعيد لتستقرّ في صدرها وخزا مؤلما:

أنا يا صمتي..

ساكت..

وقلبي عم يشكي

ساكت..

لمّا بدّي ابكي

ساكت..

وعيوني اللّي عم تحكي

ساكت..

أنا ساكت..

ولم تعرف كيف تكسّر الصمت التافه فيها سوى بالتعبير عمّا اختلج في صدرها من تأثير الأنغام الحالمة المخيّمة على البيت:

-"ما أروع الموسيقى في الصباح تجمّل القلوب وتخصبها بالخيال.. وما أعجب أمرنا أنا وأنت! يخيّل إليّ أحيانا أنّ الموسيقى تحدّثك عني.. تحمل إليك صوتي.. لا بل أنا التي تحادثك من خلالها وقد رقّت وشفّت بأفصح كلم وأغرب بيان.."

توقّعت أن يكون لكلامها وقع كعادته يثير فيه الرغبة في قول الشعر أو يستفزّه للحديث عن دور الموسيقى في التقريب بين القلوب الصامتة. لكنّه لم يقل شيئا.

عاد وجلس إلى جوارها وأطال النظر إليها في تحدّ غريب. فخفضت عينيها وارتبكت. رفع ذقنها في هدوء وضغط عليه في نعومة مغرية وقال:

. "الموسيقى يا جميلتي لسان الألم على قول "بول فان": إنّ أعذب أغانينا إنّما هي التي تعبّر عن حزننا ويأسنا ".. لمَ تهربين من نفسك وهي ألزم لك من ظلّك وأقرب إليك من جسدك.. أعشقك لأنّك مثلي.. منقطعة.. وحيدة.. تعالي ضمّي فراغك إلى

فراغي و امزجي وحدتك بوحدتي ونأنس بآلامنا معا ،فالأنس غذاء النفس ."
كان واضحا أنه يشعر بحزنها. والمزعج أنه لم يستغرب ذلك بل يرى حالة الحزن والألم بديهية وضرورية لاستمرار العشق الحقيقي وإلاّ استحال إلى وهم وزيف.
بانعدام الألم يموت العشق لديه ويصبح ذكرى لا حياة فيها..
هذا الرجل غريب الأطوار رهيب الطباع يتحسّس الهمّ والألم دأبا وينجذب إليه انجذابا ويقتات ألمه من ألمها. أتعستها هذه الحقيقة الغريبة. وسمعته يواصل بعد لحظة صمت في شيء من الشرود:
- ومن منّا مهما يكن صلبا جافيا مشبعا بذاته منطويا لم يعرف في بعض وحدته لذع الحاجة وذلّ السؤال وكأنّ نفسي تهتف ضارعة مستغيثة: الأنس ،الأنس.. ولا أنس إلا معك ، مع الحب ، مع الألم ، هنالك تتقارب الأرواح وتتلاقى إلى حد التماسّ والاتصال وقد برزت كلّ من مكمنها وأزاحت السّتر عنها وبدت عارية شفافة.
وطوّق كتفيها بذراعه فتنهدت ولاح التعب على أهدابها.. وتحرّكت فتمايلت خصلات شعرها.. ودغدغته رائحة عطرها فأردف:

-"ما أقرب هذا العطر إلى النفس! وأية مناسبة عجيبة بينكما؟ لَكأنّه تجسيد لشعور أصيل فيك.. وكأنّه معنى لم يزل قائما في باطنك. "

فهزّه شوق نحوها وزاد عذابه حزن ملامحها فنسي وحدته وراح يلثم أجفانها..

دمع حارّ أيقظه من نشوته فتنحّى عنها جانبا وألقى رأسه على الأريكة في تعب وزفر بقوة ثم خيّم الصمت عليهما.

كم كرهت هذا الصمت اللعين ، لتصفعه صفعة أبدية لا يعود بعدها ، كم نفرت من دموع العجز هذه ، فلتسحقها دون رأفة ولا شفقة.. وانتفضت من مكانها كمن لسعته عقرب وحكّت كفّها بالكفّ الآخر وأحكمت تنفّسها لتستعيد توازنها ورشاقتها في الكلام شأن كلّ رياضة وكلّ رقص رفيع وقالت في رباطة جأش:

-"كفّ عن مغالطتي ومغالطة نفسك.. ما بيننا ليس أنسا.. ما بيننا صمت أليم ، حجاب منيع ، وليته كان صمت الوحدة أو صمت الجفاء. أنا أتألّم في صمت لأني مذ عرفتك تناوبتني ميول غريبة تزعجني وتفرحني ، مذ عرفتك صرت أبحث عن أمور لا أفهمها.. مذ عرفتك اكتنفني صمت ضبابي لا أجد فيه نفسي ، و هو أرهب أنواع الصمت حيث يخلط بين اليقين والشك ، بين الصراحة والنفاق ، بين الحب والكره و يهدم

الحدود بين هذه المتناقضات.. وأنت تأنس بألمي في وحدتك وتستلهم منه شعرا وتكتبه على ورقك حبرا ثم تنشده علنا.. وفي غفلة الأنس وغمرة الفن والشعر تصدّع الحوار بيننا وباتت نفسي عشواء لا تكاد تفهم ما نقول ولا تصغي إلا تنازلا وتفضّلا ، وإذا جلّ أحاديثنا فرص لإبراز الذات ، ذاتك المتشامخة المتعنّتة..

قاطعها في اندهاش جعلها تعتقد أنه لم يفهم ما تقول:

-"بل قولي ذاتي المحبّة ، حبّك تمكّن من نفسي والتحم بها واستعصى على الفهم وبات كغريزة البقاء يصعب استئصاله لأنه مخلوق منك ومنّي ، يقتات من حسنك وظرفك ويستمدّ نعيمه من صمتك وينال شرف المنزلة من ألمك..

وما كان منه إلا أن واصل في نبرة مرتفعة جازمة أكدت ظنونها ورفعت عنها الستار الأخير:

-"ألم.. كلمة.. لا ، إنه أعمق من أن يكون كلمة مدرجة في سجل اللغة.. ثلاثة حروف معجزة بُدئت بها أوّل سورة نزلت بالمدينة" ألم (1) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (2)" كلمة لا تقرأ حروفها إلا مفصلة ولا يجوز جمعها.. أليس غريبا أن يصطفي الله هذه الحروف الثلاثة معا عن غيرها كما يصطفي رسله عن غيرهم من البشر؟ إنها حروف ملهمة بيد أنّ

الإنسان مازال لا يدرك صدقها ويكذّب دينها وإنه لمن الضالين..

الألم دين نعتنقه ويرافقنا دوما ، لا يني يمسّ قلوبنا وخزا جميلا ولذعا ممتعا ليهديها إلى عالم الجمال.. وما الحبّ على ما فيه من مظاهر اللطف والإيثار إلا ضرب من ضروب الألم المقدّس على رأي شلي" الحبّ ألم يتراءى لنا في صورة المرأة التي نحب "، ولا بدّ لأحد المحبّين أن يفترس الآخر ويلتهم سعادته حتى يستمرّ الحب فينا شعلة لا تنطفئ..

انظري إلى الحياة في سخرية وألم ، فإذا هي طوع يدك كالمرأة قد شغفتَها حبّا وألما تدرّ بأطايبها عليك.. انظري ما أقرب الناس إلى بعضهم بعضا لو لا الرهبة من الألم كما لو كان بوسع الحياة أن تعرّى من الألم.. الألم نعمة إلهية تحييك بعد موت وتبعثك أفضل ممّا كنت.. فما بالنا نهمس للألم أن اندثر و لو لا الألم لما كان للسعادة طعم..

رمقته بحدّة ، هذا أقرب الأشخاص منها و ألزمهم لها ،تتأمل وجهه فإذا ملامحه الساعة غير ملامحه في الصباح وقد يخيّل إليها أحيانا أنها تراه لأول مرة حتى تكاد تنكره وتبقى في حيرة منه عجزا عن إدراك حقيقته و يأسا من الإحاطة بحدوده.ليتها كانت خبيرة بأوتار نفسه جميعا تتصرّف فيها حسب هواها وتعزف عليها ببراعة نغمة تفهمها قريبة من نفسها .

أمر رهيب كيف يجد بعض الناس متعة مبهمة في الشعور بالألم ولذة في تحليل أمراضهم باعتبار ذلك من مميزات ثراء الشخصية وعنوانا للعظماء.

أيعقل أن يكون الألم في مختلف وجوهه وأحجامه المعيار الوحيد لكلّ ثراء نفسي؟ أ نرضى بالألم ونتفنّن فيه بدعوى الخلق والإبداع؟ فما نفع البحث عن السعادة مع الإيمان العميق بمزايا الألم؟ كانت دائما تسأل عن المسافة الفاصلة بين الألم والسعادة ، أيمكن أن تندثر هذه المسافة ليصبح مفهوم السعادة هو الشعور بالألم؟

و احتدّ الكلام بينها و بين الذي أحبّته و يتواصل الجدال ولا ينتفي الكلام و لا يحبس الصوت ولا تقيّد الآراء لكنّها فقدت لذّة الإصغاء ، فحملت حقيبة يدها و في نيتها الرحيل ، بل الهروب ، الهروب من إنسان حمل في طياته أسرارا دفينة..

قرّرت الانسحاب من هذا السباق العنيد خوفا من السقوط في الحلبة وخوفا من الغلبة وخوفا من العذاب خاصة لمّا أدركت يومها سرّا كان دفينا ، حين وقفت في القاعة الفسيحة متقطعة الأنفاس ووقفت الأقدار بينهما مسلّحة بخنجر الاضطهاد طاعنة مصيرها أدركت أن في زمن الظلام تصبح السادية دينا والألم فنّا..

بدا صوته كصوت الدفوف يزداد عنفا يصمّ آذانها ويصيبها بشيء من الدوار..
رجعت إلى نفسها لمّا أمسك ذراعها يسألها:
-"إلى أين ؟ لا ترحلي..
ضحكت.
ما أغرب أن تسمع ضحكك يتجاوب داخلك فلا تدري أأنت تضحك مع نفسك متفكّها بما تسمع أم تضحك عليها سخرية منها.
لم تفهم لمَ ضحكت آنذاك لكن ما فهمته أن القدر وهذا الرجل يسخران منها وأن الرحيل بات ثأرا وردّا للاعتبار ووسيلة للدّفاع..
-"حُكم علينا بالرحيل فلمَ نؤجل التنفيذ ونطيل لحظة الألم ؟
لكنه ردّ في حدّة مفاجئة:
-"أنت مثلهن جميعا.. تبحثين عن السعادة في غير الألم.. شدّ ما تغري الوجوه وما أكثر ما تعد الأجساد! وإذا الطعم واحد والحقيقة واحدة لا تتغير.
لمْ تبحث وقتها عن الذي كان يعنيه بل ركضت إلى الشارع تاركة الألم وراءها.}

## بعد هزيع من الليل ..

رفعت رأسها إلى السقف وحملقت فيه لحظات لا تحرّك ساكنا ثم أغمضت عينيها تستجمع أفكارها الوليدة وتبحث لها عن صيغة عريضة تقمّطها بها قبل أن تستقرّ في مهد الكتابة.. وسرعان ما عاد رأسها إلى موضعه الأول وانساب الحبر من فوهة قلمها:

{ثلاث سنوات مرّت دون أن تلقاه. كلّما تذكرته و قلّما نسيته ، يلدغ ذاكرتها فيتركها مشدوهة لفترة تفيق منها واجمة وفي عينيها دموع الأسى ،دموع وجدت في جفنيها مقرّا تأبى مغادرته. إنّه الماضي وإنكار الماضي خيانة.. الماضي.. ذلك الجرح الدامي أبدا ينزّ في نفوسنا لا نستطيع محوه أو تناسيه إلا بأن نضمه أو نؤاخيه.

وما أوقح الحاضر في هزئه بذكريات الماضي ، فكأنما لم يتغذّ منها ولم يدر أنه بهزئه ذاك يقتطع فلذة من كيانه ، بل يهدم نفسه بنفسه سفها وحمقا..

قصة طويلة كان عليها أن تكتبها أشهرا من الانزواء المؤلم أو الاختلاط المقيت أشهرا من الكبت الصارخ في صدرها أو العبارات المحلّقة حولها كأشباح..

وتمنّت ألف مرة أن تلفظها الحياة بعيدا عن دنيا الألم.
وحفرت أعماق التاريخ باحثة عن بداية قصّتها معه ، أيام كانت نظراتهما غريبة وكانت الابتسامات جواز سفر مرّ به إلى أعماقها ، أيّام كانت الكلمات
مفتاحا دخل به إلى قلبها واستراح هناك.
عرفته زميلا يدرس معها في قسم الفلسفة ، مميّز المظهر وقلّما يلتزم في أزيائه بلون واحد على غير عادة الطلبة في هذا القسم. هو على وفاق مع جلّ الألوان..
وشدّ ما استمالتْها قسرا ابتسامتُه المغرية وحملتها نظراته المثيرة ورجولته المربكة إلى عالم سحري يتراءى لها الحب فيه أمواجا من الحلم تتحقق إذا مسّتها عصا موسى.
كانت تفكّر فيه ولم تحاول يوما أن تبدي له ما تشعر به نحوه فحين تراه تتعمّد ألّا تصوّب نظرها نحو المكان الذي يكون فيه كأنّها ترهب أن يقتحمها إن التقت نظراتهما ويلاحظ ارتباكها.
كم من غريب يسكن داخلنا نتحدث إليه ويتحدّث إلينا ، ونبوح له بكلّ ممنوع دون تمويه.. وكم من صديق قريب يلزمك ليلا نهارا ولا تجد له إلاّ دورا أو حضورا باهتا في ذاتك..
كأنّ في دخائلنا حياة أخرى مضادة أبطالها من الأطياف ، يصير فيها الغريب قريبا والقريب غريبا ، يصبح فيها الموجود غائبا والمنشود حاضرا.

عرفته شاعرا في ندوة شعرية ، حضرتها في نزل "النجمة" ، وهو ما زادها إزعاجا وتورّطا لأن بعض الإعجاب لا يخلو من الرّفض والنقمة والتمرّد على ما نريد. وهي لا تريد أن تكون مطية سلسة لنفسها الجامحة المجنونة التي تكاد عسفا وإرهاقا تلقي بها إلى الهوّة.

في لحظة من الخوف كادت تهمّ بمغادرة القاعة والهروب من هذا الجوّ الملغوم بالشعر وكلمات العشق التي تحملها قهرا إلى أرض لم تختبرها من قبل ، لو لا أنها تذكّرت أنّ زميلتها لم تلق بعد قصيدتها ووعدتها أن تنتظرها لتعودا معا. لهذا عادت إلى متابعة الأجواء متجاهلة ما يحدث داخلها.

فجأة رأته يحدّق فيها بنظراته التي تخشاها وقد ازدادت عمقا وإغراء وسمعته ينشد قصيدة:

كلّ ليلةٍ
يكفهرّ غمامُها ويهِلّ سيلُها
تحتبس فَوهتي ويقحَطُ حرْفي
ينسلُّ القلمُ من يدي
تنغرس أصابعي في كفّي
وتظلّ يا ويلي ورقتي عذراء..
كشَطني القحطُ عن جسمها
وأزالني من موضعي

مثلما تكشِطُ الريحُ الغيمَ
بيدَ أنّ الغيمَ يتبدّدُ
ونفسي لا تَنِي تتلبّدُ..
همّا وغمّا..
سرت في جسمها حرارة كهربائية.. تلك الحرارة التي تصيب جسد عذراء يلمس لأول مرة.
وغاب عنها الشعور في دوي نوبة تصفيق حارّ وكأن هذه الأسطر لمسات داعب بها جسمها ونبشت ما استتر من روحها إلى درجة أنها لم تنتبه إلى مداخلة صديقتها ولم يصلها منها سوى كلمة "شكرا " تعلن انتهاءها في انتظار أجرها من التصفيق والإعجاب.
وتصحو من ذهولها تبحث عنه بنظراتها فلا تجده.."ماذا لو غادر القاعة ومضى دون أن يطفئ ظمأ شوقي بنظرة أخيرة.. ماذا لو أنّ أحدا لم يسمع صوته غيري ، لا أحد يعرفه غيري ، لا أحد سأل عنه غيري.."وتظلّ واجمة مشدوهة تسأل عنه الوجوه ولا يصلها أيّ جواب.
غادرت القاعة المغلقة ، في انتظار صديقتها ، إلى فضاء طلق حيث تحلّق بعض الحاضرين يتجاذبون أطراف الحديث بنَهم واضح و الندم يلدغها على المجيء.

و بقيت لحظات تتلهّى بمتابعة نادل وسيم في بدلته الحمراء التي نزعت عنه ملامح الرجولة وربطة عنقه السوداء التي كسته أهمية في مثل هذا المكان الباذخ ، يحمل طبقا متخما بالطلبات يتوجّه به إلى طاولة قرب المسبح يجلس عليها رجل قصير بدين تحتكّ بطنه بطرفها تقابله سيدة جميلة شديدة البياض ظنتها أول وهلة أجنبية لكنّ إفراطها في ارتداء الحليّ دون تنسيق جعلها تعدل عن ظنّها .انهمك الرجل البدين في الأكل في حين تكفّلت المرأة بشكر النادل ولم تمدّ يدها إلى الشوكة إلا بعد ذهابه بلحظات كانت تنظر فيها إلى رفيقها المنشغل عنها بالتهام شريحة لحم في نهم ،ذلك النهم الذي ينقضّ به على أنثى شذية في الهواء الطلق.

ولم تمنع نفسها من التساؤل: أيكون زوجها؟ كيف تحبّ مثل هذا الجسد المنتفخ الذي يستحيل أن تلتصق به إلى حدّ الالتحام أو أن تمتلكه لحظة تشتهي ذلك.

لطالما أذهلها عالم الرجل والمرأة ، عالم لا يخضع لقانون أو قاعدة..

وأخيرا جاءت زميلتها تحتضن أوراقها كمن تحمل وليدها بين ذراعيها في شيء من الامتلاك المثير تتحدّى به عيون الناس التي تخالها للحظة ستنقضّ عليها تنتزعه منها. وقطعت عليها خواطرها ضاحكة:

- فيم تفكّرين ؟
وفي لحظة شرود ألمّت بها سألتها:
- أ لا يُشترط في جسد الرجل أن يكون جميلا لتحبّه المرأة ؟
نظرت الزميلة إلى حيث تنظر وأجابتها في مرح واضح:
- المرأة تحبّ في الرجل صفات كثيرة حتى إذا أحبته أحبت جسده ولو لم يكن جميلا.. فربّما تحبّ الرجل لأنه سمين وقصير ، بل قد تكون الدمامة نفسها هي التي تحبها فيه.. لهذا يبحث الرجل عن جماله في غير جسده ، في حسن خصاله أوفي الثروة والنفوذ والشهرة والمناصب..
ابتسمت وقالت في تذمّر:
- أمّا المرأة ، فالرجل لا يحبّ فيها إلا جسدها ، فهي ما لم تكن جميلة لا مطمح لها في حبّ رجل.. ومن مِن النساء لا تعتقد أن حظها قرين وجهها وجسدها حتى كأنه منتقش فيهما ؟ وإن كانت ذكية أو عالمة فقد يُبهر بها ولكنه يتخذها صديقة لا حبيبة وتكون عنده والرجلَ سواء ، يحبّ فيها ما يحبّ فيه ويكره منها ما يكره منه ، وبكلمة يجرّدها من أنوثتها. وإرضاء لأنانية الرجل نحرص نحن النساء على صون جمالنا قبل أن نصون شيئا آخر.
تضاحكت الصديقة وهي تسحبها من مرفقها قائلة:

-لا تتحاملي على الرجل.. إنما كلاهما يجاري هوى الآخر ويسعى إلى تحقيق أمل الآخر فيه ، فالمرأة تتسقط مواطن إعجابه وتحفظ جمالها لأنه مطمح الرجل منها والرجل يحقق أمل المرأة فيه وينزل على رغبتها بأن يصون مجده ويرفع من شأنه.. والطريف في الأمر أن كليهما يتجاهل حقيقة مسعاه ولا يعترف بهذه الحقيقة لأنه في باطنه يكرهها.

وما أتمّت زميلتها الحديث حتّى استوقفها بعض الحاضرين يصافحونها ويهنّئونها بصدور ديوانها ويبدون لها إعجابهم بالكون الشعري لعالم المرأة لديها.

كان الفرح يشعّ من "الصديقة" كما يشعّ النور من المشكاة غير أنّها خلعت عن نفسها ثوب العقل واللياقة المطلوبة أمام الناس ، وتعرّت حقيقتها في ثوب داخلي لم يناسبها للأسف ، جعلها تقول أي شيء وتنظر إلى كل شيء بلا استثناء وتضحك بغباء لفرط سعادتها ورضاها تمام الرّضى عن نفسها.

وتتدفّق خواطرها من جديد لتوصلها إلى نفق آخر من أنفاق النفس تحاول عبثا أن تفهم فيه لِمَ من النساء و"الصديقة" منهن مَن تزداد ملاحة وفتنة عابسة متجهمة وإذا أرادت أن تضحك تكشّر قبحا وسماجة... حاولت عبثا أن تجد تبريرا منطقيا ، لكن لا مكان للقانون في شوارع النفس..

وداهمها شعور بالشفقة، وربما بالوخز لعدم مشاركة صديقت"ها" فرحتها العارية. وفاجأتها وسط أفكارها تسألها بنبرة لا تخلو من دلال:

- أ لا نذهب لنشرب معا نخب نجاحي في هذه الندوة ؟

أجابتها في دهش تائه:

-الآن..؟

تفطّنت إلى حدّة نبرتها التي شابها بعض الغضب ، فاستدركت خطأها وابتسمت في تكلّف قائلة:

- أقصد ، أن نغيّر المكان ، أيزعجك هذا ؟

وفجأة باغتها من الوراء صوت أربك كيانها يقول في تهكّم غير مستور:

- لن تجدي مكانا أبدع من هذا..

إنه هو.. الغريب القريب ، يصافح صديقتها ضاحكا ويضيف متجاهلا فضول الأخرى وعدم تصديقها لما يحدث:

- قصيدة رائعة يا عبير.. منها يعبق عبير الإبداع.

وقبل أن يترك لعبير المجال لشكره كان قد التفت إليها مصافحا إيّاها بحرارة والابتسامة تعلو محيّاه وبادرها في لطف وهو ينقل بصره بينها وبين زميلتها يسأل في فضول من تكون بل يبحث عن نافذة لاقتحام عالمها الذي كان يسكنه في زمن آخر:

- آنستي..؟
شعرت للحظة من الزمن أن قلبها يكاد ينخلع من مكانه وَجْفًا.. نبضاته تصرخ وتلعن ألمها والقدر الذي جعلها وترا يرتعش تحت وقع نبراته ولمسة أصابعه. تكره ارتباكها ، وهي التي ما اعتادت أن تنفلت منها نفسها لنظرة.. للمسة.. لصوتِ.. رجل..
تلقّفت عبير الردّ عند تردّد صديقتها وعرّفتهما إلى بعض مشيرة بيدها إلى رفيقتها ثم إليه:
.زميلتنا في قسم الفلسفة" صفاء" ، زميلنا الشاعر "عمر".
أدهشها ما بعثه فيها اسمه من خيبة ، شعور عمّق غربته عنها.. ما كانت تتوقع أن يكون هذا اسمه. تكهّنت أن يكون عزيزا أو عادلا.. اسما من أسماء الأحلام والروايات الرومنسية..
أحيانا بعض الوجوه تتنافر مع أسمائها ، تراه غليظ الملامح عكر السمات عبوس الوجه غامق السمرة واسمه على وزن رقيق "فعيل".. في حين كان يجدر أن يسمّى اسما على وزن "فعّال" لما فيه من إيحاء بالشدة والغلظة.. على بعض الناس أن يغيروا أسماءهم كي تطابق ما توحي به وجوههم.
وجدت نفسها تبتسم إليه في غباء أشعرها بالضآلة بل بالنفور من نفسها ومن وقفتها الصامتة. علّق في شيء من المرح:
- صفاء.. اسم يصلح أن يكون عنوانا لقصيدة.

أردف بعد دقيقة صمت بصوت رخيم:
- وصمتك.. القصيدة.
وطال صمتها حتى عيل صبرها وحاولت أن تخرج من ذلك الموقف بسلام وقالت مخاطبة هذا الرجل الغامض:
-هل أعتبر هذا شرفا أم تهمة ؟
ردّ في استخفاف ظاهر:
-هذا يتوقف على قيمة الشعر ومعناه في نظرك.
أدركت أن الحوار اتخذ مسارا آخر بدل مسار السلام الذي أرادته.. ولم تجد بدّا سوى أن تستأنف الكلام قائلة:
. الشعر كمركب يسافر الشاعر على متنه يقوده ربان أعمى يلتقط بحسّ مرهف صفير الريح عساه يدرك أيّ اتجاه يتبع.. أتعرف من يكون هذا الربان ؟ إنه الوهم.. الفراغ الغريب الذي يعبث بالنفوس ويدفعها إلى السفر في مركب الشعر وخوض المغامرة واكتشاف اللامعقول..
وكلّ مسافر يدعى إلى النزول على شاطئ غريب دون سابق إنذار ويقول له الربان: "ارسم نفسك على رماله إلى حين عودتي أقلّك من جديد." وعند كل شاطئ تنشأ قصيدة بأمر من الرّبان..
وبما أنّي لست ولن أكون من ركّاب هذا المركب فلا أدري هل الشعر شرف يثري أم عيب يخزي..

كان ينظر إليها في اندهاش واضح في حين كانت عبير تختلس النظر إليها تارة وإلى عمر تارة أخرى مستغربة مثل هذا الحوار الاستفزازي بين طرفين تعرّفا آنفا.

لكنّها واصلت في تحدّ غير معهود فيها:

- كما أن الشعر مفاهيم.. سلْني وسلْ عبير وسلْ غيرها وسلْ نفسك ، كلّ شخص يحمل إجابة مختلفة عن الآخر.. ولو نظرت إلى معنى الشعر في لسان العرب لوجدته معنى مبهما: "الشعر كلام قوامه العاطفة والخيال والموسيقى.. ونقطة ". في حين أن العاطفة عواطف تختلف من إنسان إلى آخر ، والخيال أخيلة متفاوتة ، والموسيقى أذواق.. فأنّى لنا أن ندرك معنى الشعر ونرسم له حدّا؟ لهذا كذب من ادّعى معرفته للشعر ولو كان شاعرا.

كانت تتكلم بصوت هادئ لا يعكس ما في نفسها من توتّر.. وكانت بين الفينة والأخرى تعزز صوتها بحركة من يدها أو من رأسها سعيا للإقناع. ولكن ما أن أتمت كلامها حتى بادرها في استخفاف أغاظها:

- طلع صمتك علينا بوشاح جديد غير متوقع.. أ لم أقل لك إنك قصيدة.. قصيدة أندلسية موشّحة متنوعة القوافي.

أبدت امتعاضها وعدم ارتياحها لهذه المناقشة لكنها قالت:

- أنت لا تعرفني حتى تعرف ما وراء صمتي.

- لكنّي أعرف أن الصمت ثراء نفسي ، تخمة الذات بذاتها ومن هنا يأتي ألمها البليغ المستتر حتى إذا أفصح ثار على النفس وعصف بكل القيود التي كبّله بها العقل.. يشبه في هذا ثورة القصيدة الحرة على الأشكال القديمة والثوابت الشعرية المخرسة للوجدان.. وما ثورتها إلا رغبة في الكلام..

خطير هذا الرجل.. كيف أدرك حقيقة صمتها في أول حديث ينشأ بينهما.. إنّها تتبرم من صمتها غير أنها تخشى ثورته على نفسها ، تخشى أن يلفظها العقل خارج قلاعه فتبقى في عتمة الندم ويتحول صمتها من صمت ثري إلى صمت مفلس..

ومن ذاك اليوم تعدّدت اللقاءات التي يدبّرها القدر وتنوعت ، وكانت تسعد حين تستعدّ للقائه وإذا لقيته يعتريها الفتور وتستشيط غضبا أو حنقا كلّما تكلم أو مازحها أو تفكّه معها. ساءلت نفسها مرارا لم لا تستسيغ النكتة ولا تذوق دعابته؟ أتكون حقّا مشبعة بذاتها إلى حدّ التخمة.. أم أنها لا تستسيغه هو؟

عجيب أمر النفس ، كيف لها أن تنجذب إلى شخص انجذابا كبيرا وتبوّئه عرش أفكارها وتسكنه أحلامها ولا تقدر على حبّه؟ وزاد عجبها من نفسها يوم أدركت لغة أخرى أعلنت وجودها في نفق آخر من أنفاق نفسها ، لغة جسدها المستغيث ظمأ: اللذة ، لذة الحب..

يومها كان وجه السماء متجهما ، عابسا ، رمادي اللون تشوبه بعض الصفرة ، ذلك اللون الذي يشعرك بالفناء وينبئك بفاجعة الطبيعة.. لقيته في المطعم الجامعي حيث أهداها مكانا أمامه في ذلك الصف المديد الذي اصطف فيه الطلبة دون تنظيم وقد علا ضجيجهم في انتظار أن يفتح باب الرحمة على مصراعيه.

التصق جسداهما بحكم الازدحام.. أحسّت بحرارته من الخلف.. انتابتها قشعريرة اللذة وكأن مئات الإبر رشقت في جسدها.. فسألته دون تفكير وهي تختنق بكلماتها تجاهلا للجة الشهوة العاتية التي اجتاحتها:

-كم الساعة ؟

لم يجبها ، بل أمسك معصمها الرقيق الذي طوّقته ساعة جميلة تعكس نفاسة ذوقها ورفعه نصب عينيها وقال بصوت خافت وأنفاسه تكاد تعانق جيدها الأبيض الذي تتضوع منه رائحة أنثوية:

- ناهزت الساعة منتصف النهار!

واصل هامسا:

- إني أشعر بك من الداخل.. استرخي..

سؤالها الفاضح ترك لجسديهما فرصة المصارحة الطارئة والاعتراف بطعنات الشهوة المتبادلة بلغة لا تجيدها إلا

الأجساد.. ولم ينقذها من ذهولها سوى صوت شجار آت من مقدمة الصف فاشرأبت الأعناق متطلعة إلى ما يحدث. كان طالبا يتشاحن مع زميله بسبب تحرّشه بصديقته وانبرى كل منهما يسب الآخر بأقذع الألفاظ وأرذل النعوت وكلاهما يحدج الآخر بنظرات ملؤها البغض والقحة. وقفزا خارج الحاجز الحديدي ليتسنّى لهما العراك في فضاء أوسع.. إنهما ديكان في الحلبة ينفشان ريشهما ويتصارعان صراع موت عارضين مهارة في القتال بل مهارة في إبراز الرجولة..

تفطنت إلى يده اندست تحت مرفقها تدعوها إلى الخروج بعد أن انتقلت الزحمة إلى مكان الشجار فاحتشد القوم أمام مدخل المطعم وما عادوا متلهفين على طبق الأكل بقدر تلهّفهم على متابعة مشهد الرجولة العنيفة. تبعته في صمت قانعة بهذه الرجولة الرزينة التي تمشي أمامها سعيدة باكتشافها لغة جديدة لا عهد لها بها.. وما كادا يسيران بضع خطوات حتى داهمهما نزول المطر بشدّة. ركضا في الطريق العريضة الخالية من الناس وقد أغربا في الضحك لمّا غرقت أقدامهما في غدير ماء. لكنّ السيل ازداد قوّة ودفعهما إلى الاحتماء في بيت بصدد البناء حتى تهدأ نوبة المطر.

نظر إلى وجهها ثم قال متجولا ببصره على جسدها المبتل وقد التصق قميصها الأبيض بنهديها الصارخين أنوثة يعلنان ثورة على ناموس المجتمع:

.كم أنت فاتنة تحت المطر.

وما أن أتم كلامه حتى كانت بين ذراعيه.. قبّل جبينها وتردّد في الانحدار نحو شفتيها وكأنه يخشاهما. ثم غرقا في قبلة عنيفة بعد أن سمعته يتمتم بين عنقها:

- أحبّك...

تلك كانت أول قبلة في تاريخ قصتهما وأول كلمة شرّعت وصالهما طيلة أربع سنوات.. ومنذ تلك القبلة بات الصمت حوارا بينهما والألم جنينا غير شرعي حاولت عبثا إجهاضه..

لقد نفذ إلى نفسها قسر إرادتها. اجتاز أسوار قلبها بنجاح ، أحبت فيه حرصه على الإتقان في كلّ شيء ، أبهرتها دقته في التعبير عن آرائه ، فتنتها أناقته وأسرتها لباقته ونظراته...

أ يكون الحب إذن ؟

لم تجد لهذه الكلمة صدى في نفسها رغم أنّ هذا الرجل سيطر على أركانها وسكنها بعنف... ماذا عساه يكون إذن ؟ أيمكن أن يصل الإعجاب إلى هذه الذروة ولا يستحيل حبّا ؟ إن لم يكن هذا الرجل هو الحب فما عساه يكون إذن ؟ لا تعلم..

في منطقها هناك خلل جعل النظرية لا تستجيب إلى الواقع.. ومن هنا أتى ألمها.. الحب في نفسها نغم تائه ما يزال يبحث عن جواب.. لكنّها أدركت في خضم هذا الدخان من الأحاسيس أن نفق الحب أعمق وأثرى من أن تدلّ عليه قشعريرة جسد أو انبهار بخصال نادرة عند الرجال أو تحدّده قصيدة شعر..}

## في شطر الليل ..

أحسّت بغثيان فرمت بما كتبت جانبا واضطجعت قليلا تستردّ أنفاسها مغمضة جفنيها تقاوم ألم رأسها وتتضرّع إلى الله ألّا يطول حتى تكمل ما بدأت. وما لبثت كثيرا حتى خفّ وجعها فاتّكأت على مرفقها وواصلت الكتابة:

{السابعة صباحا.. رنّ جرس الساعة في غرفة معتّمة تسرّبت إليها أشعة الشمس بعد أن اخترقت ستائر النافذة فاترة متئدة. حجرة واسعة بلاطها أملس بسطت عليه زربية مزركشة بألوان مختلفة بكيفية لا يتقنها إلا اليابانيون. يتوسط الحجرة سرير بسيط احتوى جسدها الأهيف الطويل.
تململت وأزاحت عنها الغطاء في تثاؤب وأغمضت عينيها كأنها تحاول أن تطرد ذكرياتها الأليمة التي باتت زادها لحظات الفراغ. نظرت إلى ساعتها في حركة تنم عن تعب وتبرّم من هذا الجرس الذي ما فقد يوما الذاكرة وما انقطع يوما عن إيقاظها للذّهاب إلى العمل. أيحتاج الإنسان دوما إلى جرس يقرع الآذان لتنهض الذاكرة المتكاسلة من سباتها؟ أ لا يملك أجراسا داخلية يكفي أن يثق فيها كي تعمل عملها دون أن تزعجه؟

ابتسمت لهذا الخاطر اليومي الذي يراودها كلّما أيقظها الجرس. مدّت ذراعها لتخرسه ونهضت من السرير متثاقلة ، نظرت إلى المرآة لتطمئن إلى وجهها وترى أيّ لون اكتسى هذا اليوم. مررت إصبعها على هالتين سوداوين سوادا خفيفا أسفل عينيها نتيجة أرقها ليلة البارحة.. بل كلّ ليلة..

استحمّت لتخلع عنها ثوب الكسل. وضعت شيئا من المساحيق التي لم تضف إلى جمالها كثيرا وارتدت ثوبا قطنيا أزرق ، تعشق الأزرق لما في هذا اللون من أناقة سعيدة تقف حاجزا بينها وبين أحزانها.. بدا عليها الثوب فضفاضا نوعا ما ، فقدت من وزنها كثيرا أغلب الأيام تكون على صيام وإن أفطرت لا تغمس في صحنها سوى لقمتين أو ثلاث.. مشطت شعرها وأمر صحتها يشغلها.. كم تحتاج إلى أمها في مثل هذه الساعة الصباحية ، تشعر بوحدة قاتلة في هذا المنزل ، اكترته لمّا عيّنوها للعمل في سوسة كانت فرحتها عظيمة بهذا المنزل المطلّ على "الكرنيش" وغنّت فرحتها أغنية بشّرتها بحياة لذيذة ممتعة غير أنّ أجواء الوحدة بدّدت أحلامها ، عائلتها تقطن في العاصمة وأمّها لا تزورها كثيرا لبعد المسافة و لكثرة مشاغلها أمّا صفاء فاعتادت ألّا تزور عائلتها إلّا في العطل المدرسية..

وفي شيء من الحنين حملتها أفكارها إلى طفولتها وإلى حضن أمّها وابتسامتها العذبة حين كانت تجلسها على ركبتيها قبل خروجها إلى المدرسة تمشّط شعرها برفق وتمهّل متفنّنة في تصفيفه.. كانت خصلاتها على جانب عظيم من الجمال تجعل المارة يحملقون فيها بعيون شاخصة تبعث فيها نوعا من الاطمئنان والزهوّ.

لم يبق لها إلا أن تحمل معطفها ومحفظة أوراقها وكتبها وتتجه إلى محطة "التاكسي في" باب بحر" لتقلّها إلى "سيدي بوعلي" حيث تعمل مدرّسة لمادّة الفلسفة..

كانت سيارات الأجرة واقفة على حاشية من الطريق الواحدة تلو الأخرى كلّ ينتظر دوره في صبر جميل وقناعة سعيدة. لم تر النظام أو الاحترام مجسدا في أبهى وجوهه إلا في مثل هذه المحطات..

استقلّت أول تاكسي في الصف الممدود. ما تزال مقاعد السيارة شاغرة.. جلست خلف سائق أشيب بدين تعلو وجهه كآبة رغم وداعة ملامحه. لم تكن تحبّ المقاعد الأمامية، تشعرها بالارتباك وتقيّد حركتها وتشلّ تفكيرها فيخيّل إليها أنّ الأنظار تعبث بجسدها من الخلف وتغتصب منه ما تشاء وهي عزلاء مسلوبة الحركة.. شعور يزعجها جعلها توقن أنّ الأمام ليس مكانها.. هي من صنف النساء اللاتي يفرطن في التأمل

الصامت ويخترن المواقع التي تتيح لهن رؤية شاملة دون إثارة انتباه الآخرين.

ألقت عليه تحيّة الصباح فردّ عليها متمتما بفتور. وعذره واضح في هذا الفتور ، فإنه لم يظفر بعد بصيده من الركاب ، كذلك كان الجوّ غائما بسحب كثيفة متلبّدة لا يبشر بوفرة الركاب هذا اليوم..

شدّ ما أشفقت على هؤلاء السوّاق ، هم في مخيّلتها فئة شقية تعاستها في أنها مزيج غريب من البساطة والتعقيد ، من الرضى والنقمة ، من الحكمة والتهور ، من الاستكبار والتدلل ، من العلم والجهل ، من الغضب والحلم... كما لو أنهم تشربوا هذا المزيج المختلط ، هذا "الكوكتال من المشاعر "من فرط مرافقتهم اليومية لتركيبات نفسية مختلفة من الركاب.. فتضمحلّ نفوسهم وسط هذا الخليط وتتبعثر قناعاتهم التي توارثوها ويصبحون بلا لون كأن تتخبط الألوان بعضها ببعض فيخرج منها لون لا لون له..

ما أشقاهم.. قست عليهم الأقدار وأسرتهم في قلب عربة تدور عجلاتها دون توقف صباحا مساء يرون العالم في داخلها ومن نوافذها.. ولا تسلْ عن قيمة رؤية تكون خلف نافذة..

وتبدّدت أفكارها لمّا فتح باب السيارة رجل طويل القامة تفنّن في أناقته إلى حدّ التكلّف ، بدا لها من صنف الرّجال الذين

يقتنصون احترام الناس بتحفّظهم الكاذب وبحركات وكلمات مدروسة تتوافق مع أزيائهم المصطنعة التي ينفقون عليها أموالا طائلة وما إن يخلع عنه هذا الزي ، زي الاحترام ، حتى تتحرر نفسه من زيفها وتعود إلى طبعها وتستعيد فحولتها المثيرة.. وقد يكون في تأنّق الرجل صورة من صور إرضاء رغبته في الجمال الذي كان يبحث عنه يوما في جسد المرأة..

جلس إلى جوار السائق يكاد رأسه يلمس سقف السيارة. وتطلّع إلى الوراء ككلّ فضولي لا يستقرّ في مقعده إلا بعد أن يعرف من يرافقه ويتساءل إلى أين يقصد وكأنّ أمره يعنيه.

وسرعان ما لحقت به امرأة متقدّمة في العمر ، مستديرة الوجه ، ممتلئة الجسم مع ميل إلى القصر تلفه بملاءة بيضاء تغيّر لونها بفعل الاتساخ ، ورمت بثقلها على المقعد جوارها وأساورها ترنّ كلّما تحركت ذكّرتها برنين الأجراس في عنق الدّابة. وقالت في صوت يكاد يكون لهاثا:

- يا لطيف ، ما أضيق هذه السيارة..

وتفرّست في وجهها قليلا وكأنها تنتظر منها تأييدا ليمتدّ الحديث بينهما لكنّ صفاء اكتفت بالابتسام فأشاحت المرأة بوجهها عنها وطفقت تحملق في الرجلين أمامها.

وما كادت تستوي على مقعدها حتى اكتمل المقعد الأخير بقدوم رجل في الثلاثين من عمره قمحي اللون غزير الشارب

جذاب الملامح يرتدي بدلة زرقاء وبُوطا أسود ويلف رأسه بخرقة خطت بالأبيض والأسود على طريقة الفلسطينيين. وجلس في تحفّظ ملحوظ بسبب صرّة اللحم التي تتوسطهما وفاضت أجنابها على الطرفين. ووضع قفته بين ركبتيه وقد فاحت منها رائحة سمك طازج استفزت الأنوف فالتفتت إليه الرؤوس في اشمئزاز ونظرت إليه شزرا كمن يحمل معه مواد غازية خانقة.

وانطلقت السيّارة أخيرا بهذا الصيد المتنوع وراق عندئذ للسائق أن يفتح المذياع ليصلهم منه صوت عربي قوي شجي شدّ ما يؤثر فيها ويدغدغ فيها الحنين إلى البكاء، وجذبتها الكلمات جذبا بصوت "ماجدة الرومي" تقول في نغم حماسي مؤثر:

أين ستهربون ؟
من ردّة الغضب في صدر شعب كامن يحترف الغضب
بحقّنا الأسير أين ستهربون ؟
من لعنة الضمير
لا..لا..
لن يجدي الهرب
يا من بنيتم أمنكم بدماء أجساد الصغار
لن تستطيعوا غسل هذا العار

يا أقحوان الموت ، يا حضارة الدمار..
فلتسمعوا ، فلتسمعوا
أنتم ومن وراءكم من دول القرار
نحن شعب لم يعد يخيفه الدمار
فالموت في حياتنا فصل من النهار
فلتسمعوا ، هانحن شعب حامل أوسمة الشهادة
نموت في ترابنا ونعلن السيادة
نموت في رمادنا ونعلن الولادة

على هذه الأنغام استسلمت للحظة حلم ترى فيها الشعب الفلسطيني يدوس الظلم والعسف الصهيوني بأقدام من حجارة ويرفع راية الحق.. وترى أمة العرب والمسلمين لمّت فتاتها واستجمعت أنفتها وعزّتها التي داستها أقدام الغزاة الأمريكيين والبريطانيين حين اعتدوا على أرض العراق البوابة الشرقية للوطن العربي على مرأى ومسمع من الدول العربية في تحدّ صارخ للعالم وقوانين السلام.

ويبدو أن هذه الأنغام لم تسْرِ في جسمها هي فحسب إنما تعدّت إلى بقية الركاب واستفزتهم للخروج من الصمت دون تكلّف للتعبير عن همّ مشترك يؤلم كلّ فرد يشعر بانتمائه العربي.. وامتدّ الحوار وعلت الحناجر داخل السيارة وتبدّدت

الحواجز. قال صاحب الشارب الغزير في حدّة غير متوقعة وقد احتقن وجهه غيظا:
- الموت للمحتلّين الأمريكيين والبريطانيين والصهاينة.. هؤلاء عصابة شرّ تحكم العالم وتفعل ما يحلو لها من الجرائم باسم السلام والحرية والديمقراطية المزيفة.
أردف السائق في هدوء حزين:
- ألم تشاهد التلفاز البارحة؟ باسم الديمقراطية أُستهدف شعب العراق بالقصف الوحشي والمجازر الفظيعة واستبيحت ثرواته وحُرقت متاحفه ومكتبته الوطنية وقُتل الأطفال والنساء والمرضى وقُصفت المستشفيات والمساجد وقُتل الصحافيون حتى لا يشهدوا على جرائم الأمركيين البشعة.. ولم يكْفِهم هذا، فنصّبوا حاكما صهيونيا على العراق تساعده عصابة من الخونة ممن باعوا ضمائرهم. كلّ نظام لا يروق لأمريكا تطيح به بذريعة امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل وتقيم آخر عميلا تابعا لها.
وتطلّع الرجل المتأنق إلى السائق عارضا جانب وجهه الأيسر وفي عينيه شبه بسمة غامضة..
في حين قال صاحب البدلة الزرقاء في تأييد واضح:
- القضاء على أسلحة الدمار الشامل هو ذريعة كلّ طاغية أخطبوط والتاريخ يشهد بهذا. فروما مثلا منذ قرون خلت في

خضم صراعها مع قرطاج كانت تبعث إليها مفتّشين للبحث عن أسلحة الدمار الشامل.. أتعلمون ماذا كانت في ذاك الزمن ؟ إنها الفيلة.. المقولة نفسها والغاية واحدة بيد أنّ الفيلة استحالت إلى قنابل نووية..

ولم تمنع نفسها من الإعجاب بهذا الشارب الغزير وهذا الرأس الملفوف المشبع علما وثقافة ومبادئ رغم رائحة السمك التي تتضوّع منه.

كانت كومة الشحم بجانبها تنظر إليه شاخصة تستمع إليه في انتباه دهشة لا انتباه فهم لما يقال كمن يقف مشدوها أمام لكنة أعجمية يسمعها لأول مرة.

وما إن عمّ الصمت حتى علا رنين هاتف فتطلّعت الوجوه إلى بعضها البعض مستفسرة عن مصدره ولم تتنبّه صاحبة الملاءة إلى أن الرنين صادر من مكان مستور داخل جسمها إلا بعد لحظات. تضاحكت بصوت بشع فبانت أسنانها الصفر وقد تخلّلتها بقع سوداء زادتها سماجة وقالت تخاطب أدباشها بعد أن أدخلت يدها في صدرها الضخم تبحث عن الهاتف:

- نسيت أنه معي، لا يسلّمني زوجي إيّاه إلا حين أقصد سوق "قصرهلال" للتبضّع.

وأمسكت الهاتف بيد خشنة وأجابت المتكلّم في صوت مرتفع:

- ألو.. ألو.. ألو.. ألو.. محمد ، الله يسخطك ، أين أنت ؟ ما زلت في الدّار ؟

وهمزتها بمرفقها وعينِها اليسرى قائلة في صوت خفيض:

- إنه زوجي يريد الاطمئنان على "القَضَيّة"..

وعادت إلى زوجها تقول في صوت يكاد يكون صراخا:

- بعت كلّ شيء.. لا تخف الأمور على أحسن ما يرام... ألا تفهم.. نعم.. وجدتها هناك ودار بيننا حديث طويل وعريض كاد يتحوّل إلى شجار بسبب عمْلتك الغبية.. والله العظيم ، والله العظيم يا محمد لو أعدت الكرّة لن أغفر لك ويكون عقابي لك بالطرد النهائي من المنزل.. قبّحك الله وقبّح من عرّفني بك... هيّا ، هيّا ، لا تثر غضبي الآن.. حين أصل نتفاهم".

وأغلقت الهاتف بعنف مغمغمة بمزاج عكر ولو كان زوجها أمامها لرمته به دون شكّ.. وخيّم الصمت عليهم من جديد وانكمشوا على أنفسهم وكلمات المرأة ما فتئت تتردّد في ذهن كلّ منهم تستفزّهم للتساؤل فضولا عمّا فعل الزوج حتى تخاطبه امرأته الفحْلة على هذا النحو؟ ويحاول كلّ منهم بناءً على ما سمع أن يتخيّل ما حدث ويحبك نسيج قصة طريفة تصلح للتندّر بها بين أصحابه وأقاربه..

لا تدري كم مرّ من الوقت قبل أن ينزل صاحب قفة السمك ، ودّعته صفاء بعينيها وفي نفسها ثقة أن لهذه الرجولة وقعا خاصا لديها. وقفزت إلى ذهنها فكرة مجنونة ماذا لو خلع عنه رائحة السمك وارتدى لباسا رياضيا ونظارات شمسية سوداء ألا يتحوّل إلى رجلها المثالي؟ أ يمكن أن تغرم به حقا؟ أ يكون الحبّ معه جميلا شهيّا؟ راقت لها الفكرة إلى حدّ الابتسام بعيون حالمة.. خُيّل إليها أنّ مثل هذا الرجل يمكن أن يقدح شرارة الحبّ في قلبها. وفجأة انتصبت صورة "عمر" في مخيّلتها وانتفضت من عرش قلبها لتطرد طيف هذا الرجل الذي تسرّب إلى نفسها في حلم جميل شرّ طردة كحارس أمين يحرص حرصا شديدا على حماية بوّابة الحبّ من الأعداء الزاحفين على رمال قلبها.

وتواطأت المرأة السمينة مع الرجل الطويل في طرده من خيالها بأن قالت مقطبة:

-الحمد لله أنه لم يواصل معنا الطريق كاملة.

واصلت بعد أن أمسكت رأسها بكفّها:

-عيب عليه.. كدت أصاب بدوار من فرط الرائحة.. في الواقع رائحة السمك تقرفني..

قال الرأس المتأنق متطلّعا إلى الطريق الممتدّة:

.على السائق أن يمنع ركوب مثل هذه الأصناف في سيارته..

صاح به السائق دهشا:
.بأيّ حقّ أمنعه ؟
أجابته السمينة وهي ترمقه بنظرات عامدة:
.بحقّ الحرية.. السيارة سيارتك.. أ ترضى أن تبقى هذه الرائحة عالقة في أغلفة المقاعد؟ وقد تلازمك يوما بأكمله وربّما أكثر.
صمت السائق. فأردف الأنيق ممتعضا:
- بكلّ تأكيد ، لا يعقل أن تستقلّ "تاكسي" فتحتكّ ثيابك بثياب سمّاك وتذهب إلى العمل تفوح سمكا... المفروض أن تتصدّى لمثل هذه المظاهر.
صمت ثم واصل وهو يشعل سيجارة:
. كان عليه أن يغتسل ويغيّر ثيابه قبل الاحتكاك بعامة الناس.. إنه التخلّف عينه.
تكلّم السائق بعد أن أوغرا صدره وقال في ضيق:
.لعنة الله عليه.. رائحة السمك لم تنقشع حتى بعد نزوله..
انتابتها حالة من الشفقة على هذا الرجل المنبوذ الذي ، حيث يكون ، لا يعلم ما يقال في شأنه من ذمّ.. إنه زمن يُلعن فيه حامل السمك ويُنبذ كمن يحمل الخمرة بيد أنّ الخمرة تخلّ بالعقول والسمك يخلّ بالثياب ، والشبه واحد ، وأضحى السمك فضيحة الفقراء..

وجدت نفسها تخاطب الطويل دون تردّد كما لو أرادت أن تثأر لرجل السمك:
-أطفئ السيجارة أرجوك..
التفت إليها وحاصرها بعينيه قارنا حاجبيه ثم فتح النافذة في صمت ورمى بالسيجارة المشتعلة.
في كلّ رحلة "تاكسي" ذهابا وإيّابا لا تمنع نفسها يوميّا من تساؤل غريب "أيّ حكمة اليوم تتعلّمها من تاكسي القدر؟" فيه تصادف أصنافا من الناس وتكتشف ضروبا من السلوك وألوانا من الصمت أو المحاورات وفي كلّ مرّة تدرك أنّ القدر يسوق إليها تاكسي دون غيره ليبعث إليها برسالة رمزية تضيء لها جانبا من جوانب روحها.. إنّه" تاكسي" القدر أو قدر "التاكسي" ، كلاهما سيّان. وكم قدر ولد في تاكسي..
وصلت إلى المعهد وقد رنّ جرس الثامنة. أسرعت إلى قاعة الدّرس بعد أن لبست ميدعتها البيضاء في عجالة وحملت علبة الطباشير رغم يقينها من عدم استعمالها. وشقت الساحة العريضة مهرولة.. ما أوسع هذه الساحة كصحراء مترامية الأطراف وما أثقل العبء على عاتقها هي التي لم تشأ يوما أن تكون من أسرة التعليم أو من أهل المسؤوليات الجسام.. أحيانا تستنكر أن تكون مربّية وتنقم على القدر الذي جعلها تعدل عن حلم بات بعيدا عن نفسها ، أن تكون رسّامة.. إنها

الآن لا ترسم بالريشة والألوان ، لكنها ترسم.. ترسم سحبا من الأفكار في لوحة صمتها.. ما أقسى أن تمتهن مهنة التفكير وأن تتاجر بالحقيقة وتتقاضى عليها مقابلا مادّيا مثلك مثل السفسطائي الذي يحشد الحقيقة في خدمة أصحاب النفوذ السياسي والاقتصادي ويلقي على الحقيقة ضلالا لعلّها هي التي يعيش الناس منذ العصور القديمة إلى اليوم تحت رحمتها.

أمرتهم بفتح الكتب والكرّاسات وتسجيل كلّ ما يرونه صالحا وشرعت في الحديث عن الشكّ الديكارتي. قالت في تمهّل يخوّل لهم تسجيل ما تقول مارّة بين الصفوف..

سكتت فتوقفت معها الأقلام ثم توجّهت نحو طاولة في آخر الصف الأيسر يجلس عليها "الهادي" تلميذها الجريء فبقدر ما تُكبِر فيه جرأته المعهودة وذكاءه المتقد تكره منه تقاعسه عن الدّراسة.. نظرت في كرّاسه فوجدت صفحة الدّرس فارغة ما عدا جملة واحدة كتبها بخطّ غليظ: " من الحكمة ألاّ نثق البتة بالذي يخدعنا ولو لمرّة واحدة ".

قالت له في اندهاش:

- لم لا تكتب ؟

- لم أسمع شيئا يصلح للتسجيل سوى هذه الجملة.

- والبقية ؟

- البقية سفسطة لا تسمن ولا تغني من جوع

- كيف ؟
- ليست هذه هي الفلسفة الحقيقية.. فما الجدوى من حشو أدمغتنا بفلسفة لا تنقد الواقع ولا تغيّره.؟
كانت العيون شاخصة فيه وكانت تبحث عن إجابة تقنع بها تلميذا يمعن في الكلام:
. اليوم نرى نقد ديكارت للواقع المعرفي في عصره.. والواقع المعرفي الفكري ليس بمعزل عن الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، فالنظرية هامة ولها قوة كقوة السلاح تؤثر وتغيّر..
فغضّ بصره في ارتباك وحيرة ثم قال:
- لا أدري لِم لا أشعر بفائدة ما أتعلّم وبمجرّد أن أخرج من الفصل يتبخّر ما درست كأني لم أدرسه قطّ..
-لأنك لا تكتب ما ندرسه
لوّح بيده قائلا:
- العلم في الرّاسْ وليس في الكرّاسْ.. أ كلّما أريد استثمار معلوماتي في موضوع من مواضيع الحياة أهرع إلى الكرّاس لأحفظ ما فيه ؟
- هذا ما يفعله التلاميذ النجباء.. لنعد إلى الدرس الآن.
أكملت درسها وكلمات تلميذها تتجاوب داخلها وفي نفسها ثقة أنّها تقاسمه تفكيره في الحقيقة.. ما أعظم الهوّة التي أضحت

بين التعليم والحياة. تعرف هذا إلا أنّها تموّه الحقيقة وتغلّفها بالزيف لتلجم الأذهان عن التفكير في خدمة برنامج عقيم وضعته تصوّرات سياسية، برنامج يقول تعلّم لتنجح في الامتحان لا لتفهم وتتواصل مع الحياة كمن يقول لك تعلّم الطبخ لتطبخ لا لتأكل. ومحنة المربي أنه الحارس الأمين الحريص على التقيّد ببرنامج الطبخ والسهر على تطبيقه بحذافيره.

عادت إلى بيتها حوالي الواحدة بعد الزوال. البيت صامت لكنّ صمتها جائع يريد الكلام. حملقت في الفراغ حولها بنظرة حزينة جدّا.. وأقرّت.. أنّها في حاجة إلى رجل، رجل يملؤها قبلا، ويضمّها إلى صدره بعنف ينسيها هذا الفراغ الفظيع. أحسّت بجسدها ينتفض شهوة لاذعة فتنهدت في فتور وتجهّم وتوجّهت إلى الثلاجة تبحث عمّا يصلح للأكل تسد به رمقها. لم تكن راغبة في شيء البتة لكنّها حاولت في ملل أن تتلهّى بالطعام. وحملتها أفكارها حملا إليه، هو الذي علّم جسدها كيف يهتزّ للمسة بالأنامل أو لقبلة بالأنفاس وعلّمها كيف تطفئ ظمأ شهوتها دون أن تقع في الفضيحة. وعجبت للقوة التي تدفعها إلى التفكير فيه كلّما مدّدت جسمها على الفراش تتخيّله جوارها يحتضنها بذراعه تلمسها أنامله نزولا وصعودا لمسا

خفيفا وقد وضعت رأسها على كتفه ترجّل شعر صدره بأصابعها..
ترى كيف حاله ؟ كمْ تشتهي أن تلقاه ، أن ترى ابتسامته وتنظر في عينيه ، لكن لتقول له ماذا ؟ غريب أمر نفسها ، تشتاق إليه وهي التي نفرت منه. لا تعلم عمّ تبحث مع هذا الرجل.. ولمَ طيفه يطاردها طيلة هذه السنوات ؟ كيف لا يكون طيف الحبّ والرجل متربّع في قلبها ؟ أيكون طيف الجنس ؟ لكن لا وفاء للجنس وهي التي لم تعرف رجلا بعده..
هي في حاجة إلى شاطئ سلام تجد فيه الخلاص من تناقضها..
ما الحبّ إذن ؟ ما زالت لا تعلم..
تنتظر من القدر جوابا يحمله إليها مع الأيام..
خبرت شرارة الألم وفرّت منها.. أتفرّ يوما من الحبّ إن حالفها الحظّ وعرفته ؟
وباغتها خاطر غريب لم يتبادر إلى ذهنها من قبل: أ يمكن أن يكون الحبّ مجسّدا في الذكرى ؟ أ يُعقل أن يكون الحبّ هو الشوق الظامئ إليه والسعادة ليست إلا الرغبة الشديدة فيها ؟ أيعني هذا أنّ الحبّ ليس في وصالك بالحبيب تمام الوصال لأن وعيك بالوصال يذهب عنك الشعور بالحبّ.. ولعلّ الحبّ هو مجرّد الشعور العميق بإمكانه. أ يكون هذا التبرير لما حصل لها مع" عمر "..

فيض من الأسئلة هاجمت به نفسها حتى انقشعت الغشاوة أمامها وتفطنت إلى حقيقة غريبة تحتاج إثباتا وبرهانا حيّا. وفي لحظة فكّرت ماذا لو بحثت عنه واختبرت نفسها من جديد ، فإن لقيته وفتر شوقها وعاودتها نفس المشاعر القديمة أدركت حينئذ نغم الحبّ التائه في نفسها وأحاطت بحدوده ، أدركت أنها تحبّه ذكرى في نفسها ، وحين تغيب الذكرى بحضوره يغيب معها الحبّ..

ما أشقى على قلبها أن يكتشف هذا في لحظة زهيدة.. أعقد الأمور وأصعب الأشياء يلتبس عليك فهمها دهرا طويلا حتى لتضيق بها وتكاد تنفجر من الحيرة أمامها و في لحظة حلم ببضع ثوان تراها رقّت وشفّت بأوضح بيان وأفصح كلام كما لم تكن غامضة قطّ.

إنها تنشئ الآن نظرية تحتاج إلى الممارسة لتثبت صحتها.. فكّرت كيف وهي لا تعلم عنه شيئا مدة طويلة.. أين يمكن أن تجده في مدينة مزدحمة كهذه ؟ ماذا لو تزوج ولم يعد يذكرها كما تذكره ؟ فكرة أرعبتها وذكرتها بكبريائها أدركت معها موت نظريتها لاستحالة إثباتها. وأضناها التفكير وبدأ النعاس يداهمها ولم يمض وقت طويل حتى غرقت في نوم ثقيل.

أفاقت وقت الغروب ، استغربت أن تنام كلّ هذه الساعات نوما عميقا تحتضن طيفا لم يترك أثرا على وسادتها. مرّرت يدها

على جانب الوسادة ثم انتفضت من مكانها تملّصا من براثن هذا الخيال. أدركت أنّ جلوسها في البيت وحيدة لن يزيدها إلا شذوذا وانقباضا فحملت معطفها وخرجت من البيت لا تلوي على شيء تضرب في الأرض على غير هدى عسى أن تجد في تسكّعها متنفّسا.

كانت الطريق شبه مهجورة ما عدا بعض السيارات التي تمرّ جانبها تنسيها وحشة الشارع.. وانحدرت إلى الشاطئ ، كانت تمشي في هدأة الغروب بخطى ثابتة هادئة وكأن جمال المنظر استحوذ عليها فغاب عنها الشعور.. أيّ كآبة في هذا الغروب الجميل.. كأنها الغصة المكبوتة. كانت نسيمات المساء تداعب شعرها المتدلّي على كتفيها فتحوّل هدوءه إلى عاصفة صيف في شاطئ الحبّ فتتصادم أمواجه على خدّها عائدة إلى موضعها الذي انطلقت منه لتعود بنفس القوة ونفس الحدّة.. وترتفع يدها وتهمس لشعرها أن اهدأ. ويتولّد بينهما حوار صامت فيه من التحدّي ما يجعل كليهما يصرّ على المواصلة.. وتنتصب صورته مجدّدا على صفحة الماء صامدة أمام ذاكرتها وقد هزّها شوق إليه. وتواصل المشي ويحتدّ الصراع بين شعر منطلق عائد ويد تريد منعه.. كان قلبها وقتها يصرخ وصرخاته تمزّق أحشاء الصمت في داخلها وكانت تقاوم.. تقاوم شوقها وإغراء البحث عنه.

تراءت لها الشمس منتصبة في قلب السماء وقد ماعت ألوانها صارخة في وجه الظلام الزاحف نحوها أن ارحل عني ، لكن لا صدى لصراخها بعد أن غامت واحتجبت في رقة واحتشام.. ما أشبه نفسها بهذا الشفق.. نظرت إلى البحر في فرّه وكرّه فتذكرت بعض الكلمات التي نظمها "عمر" ساخرا من صلف البحر:

كلّما أزبد البحرُ
أسمعه يهرُّ في وجه الرمل الأكلف
أن اغرُبْ عنّي..
قبل أن تطالك أمواجي
وتستكين في جوفي حكاية مبعثرة
وما إن يصلِ الشاطئ
حتّى يفرَّ خشية أن يرشفه الرملُ.

ابتسمت وأخذت نفسا طويلا وولّت خارجة من الشاطئ. وتمرّ الساعات مسرعة ولم تتفطّن إليها.. وتصحو من ذهولها واجمة مشدوهة تسأل عنه الطريق. التفتت يمنة ويسرة تتبيّن أيّ سبيل سلكت.

لاحظت أن منعطفا وحيدا يفصلها عن بيته القديم الذي كان قد اكتراه زمن الدراسة.. ماذا سيحصل لو اقتربت من بيت كانت لها فيه ذكريات حميمة وتتطلّع إليه عن بعد؟ رأت أن

الفكرة مغرية ولن تكلّفها شيئا. ودون تردّد مشت نحوه في خطى سريعة وقلبها واجف ، تخشى أن تتربّص بها الذكريات في المنعطف وتنقضّ عليها تنهش ذاكرتها بضراوة. لكنها واصلت الطريق قدُما متجاهلة خوفها من الماضي ، ماض حيّ أفقدها لذّة الحاضر. رفعت ياقة المعطف كما لو أرادت أن تخفي توتر وجهها أو أن تتحصّن بها من عار قد يلحق بها..

لم نعتبر بحثنا عن الماضي عارا وجريمة لا يغفرهما لنا الحاضر.. لم هذا الخصام الدائم القائم بين مرحلتين من حياتنا هما في الحقيقة وجهان من عملة واحدة إن التأما وتضامّا أخصبا المستقبل وإن تنافرا وتنابذا أقحلا النفس.. كم هو غريب أن تنتصب الكرامة حاجزا بين الماضي والحاضر ما تنفكّ تطعن كليهما بالآخر وتوهم النفس بأنهما خصمان لدودان.. ومن هنا تتأتّى محنة الإنسان مع نفسه..

وامتلأت نشوة في ذاك الطريق الذي يحملها إلى الماضي ووسّعت خطاها قبل أن يستفيق فيها الكِبْر ويردعها شيطان العقل ويثنيها عن رغبتها قسرا. تراءى لها المنزل مُضاء. مرّت أمامه وتطلّعت إلى النافذة المغلقة التي تنسدل عليها ستائر زرقاء.. أيمكن أن تكون الستائر الزرقاء نفسها ؟ أ يكون هناك ؟ انكمش قلبها في صدرها لهذه الفكرة وخطر لها أن تتمادى في جرأتها على تجاوز حدود الماضي المحظورة وتتسلّل إلى ميدانه

الخطير الذي سبق أن فرّت منه يوما.. وألحّت عليها الرغبة في أن تختلس في غفوة العقل لذّة الحرّية بأن تطرق بابه وتترك لعيونهما حِمل المواجهة وتثق في القدر.
اقتربت من الباب وأنفاسها متصاعدة.. كم نخشى ما نهجره يوما وحين نعود إليه لا نعرفه. همّت بضرب الجرس لكنّها تردّدت. وباغتها عقلها يسألها ما الذي دهاها؟ وشُحذ همة لثنيها عمّا تريد. أوحى إليها أن تنظر في ساعتها.. الثامنة ليلا.. ماذا لو خرج إليها غيره؟ كانت تعرف أنها تحسن التصرف في هذه الحالة بأن تدّعي الخطأ في المنزل.. وكانت تشعر بغريزة أنثى أنّ الأجواء في الدّاخل ليست غريبة عنها وبما أنّ القدر قد ساقها إلى هنا فلن يخذلها.. ألجمت عقلها بهذه الذرائع ومدّت يدها في ثقة غير معهودة وتصامّت عن صوت العقل ، ورنّ الجرس..

سمعت حركة خفيفة في الداخل وأبطأ القادم قبل أن يفتح الباب نصف فتحة ويطلّ منه رأس شابة جميلة تصغرها سنّا ترتدي ثوب نوم ورديّا زاد وجنتيها تورّدا وقد شدّت خصلات شعرها إلى مؤخرة رأسها فبرزت عيناها لامعتين تغريان بجوّ عاطفي مشحون بالحسن والدلال. بادرتها مبتسمة في احتشام ونظراتها لا تخلو من تساؤل:

.نعم ، سيدتي تفضّلي..
ارتبكت وحكّت جبينها قائلة في صوت متلعثم:
. في الواقع.. سامحيني على الإزعاج..هل.. يقطن هنا السيد "بركات"؟
تسارعت نبضات قلبها لمّا أومأت الفتاة بالإيجاب تنتظر منها ما تريد وفي لحظة ألحّ عليها سؤال مَن هذه الفتاة؟
واستبدّت بها حيرة مربكة وحين طال صمتها وبان ارتباكها سألتها الشابة في لطف:
- تبحثين عن عمر؟ لم يعد من العمل بعدُ.. يعود متأخرا
- أين يعمل؟
- له محلّ لبيع الأحذية في "تاج مرحبا".. توصينني بشيء؟
لم تجبها وبعد دقيقة صمت قالت لها:
-لا.. شكرا ربّما أعود إليه مرّة أخرى.. عفوا علـ..
قاطعتها في تلقائية طفولية:
- تجدينه وقت الظهر ، يكون قد أفاق من نومه.
هزّت لها رأسها موافقة وامتنانا على لطفها. وولّت راجعة تبتلع مرارة الخيبة.. تلك الخيبة التي يشعر بها المرء بعد بذله جهدا جهيدا راح عبثا ولم يثمر بما توقّع.. وتذكرت آخر ما تفوّهت به الفتاة.. أجل هذه عادته منذ عرفته ، يعشق النوم ظهرا..

كم مرّة كانت تداهمه في منزله نائما إلى حدود الظهر وتؤنبه لعدم قدومه إلى الجامعة وحضور الدّرس وكان يجيبها في مرح خبيث يثيرها:

.كي يجيء الدّرس إليّ معطّرا برائحة أنوثتك.

ويجذبها إليه بقوة فترتمي على صدره ويطوّقها بذراعيه ويضغط عليها في عنف مقصود حتى تصرخ وتحاول فكّ جسمها من بين ذراعيه لكنّه يواصل الضغط عليها قائلا:

- ما أحلى أن تصرخي في دلال وجسمك ينتفض فوق جسمي.

- دعني أرجوك.. لا تكن بدائيا ترى رجولتك وقوّتك في السيطرة على أنثى متمنعة.

يقول عابثا:

.ألا تشعر الأنثى بأنوثتها إلاّ بين ذراعين بدائيين ؟

مضت في طريق العودة وقد تضاعف ألمها وصورة الفتاة لا تفارقها. من تكون ؟ وما تفعل هناك ؟ لم تسعفها حواء الكامنة فيها سوى بشعور واحد هو أنها ليست زوجته.. لم تر على وجهها ما ينبئ بالغيرة أو الرغبة في معرفة من تكون هذه التي تبحث عن عمر ليلا.. لو كانت زوجته لكانت نظراتها كالحة جامدة وكلامها خشنا لمجرّد رؤيتها تطرق بابها تسأل عن زوجها.. هذا الاقتناع أراحها بعض الشيء وخفف من لجّة

السؤال لديها ، المهمّ ألّا تكون زوجته ومن تكون بعد ذلك لا يهمّها..

وأفاقت على صوت عقلها يقرّعها ويحاصرها بالأسئلة الكئيبة لماذا؟ وكيف؟ وهل؟ وإلام؟ وغيرها من أدوات الاستفهام التي باتت عقيمة التأثير في نفسها.. ملّت ذلّ السؤال وبؤس الحكمة. لتجرّب أن تفعل ما يحلو لها عساها تدرك ما تاه من نفسها.

وانبعث فيها فضول مربك لم يراودها من قبل.. ماذا حصل طيلة هذه الأعوام الأربعة؟ لم لم يعمل في مجال اختصاصه؟ من أين له الأموال لامتلاك متجر في أفخم مركب تجاري في سوسة؟ هي تعلم أنهّ ابن فلاح يملك قدرا كبيرا من الأراضي وتذكر أنه حدّثها يوما أنّ أباه من صنف الفلاحين الذين يقدّسون حفنة التراب ويرون من الخزي أن يبيع فلاح أرضه مهما كانت الدوافع لأنه ببيعها يبيع شرفه. أيعقل أن يكون والده قد باع أرضه ومدّ ابنه بالمال وتخلّى عن مبدإ أجداده وغيّر من قناعاته؟ أو ربّما يكون قد توفّي ومن ثمة عبث الأولاد بمقدّسات أبيهم؟ لم تستبعد هذا في زمن نعبث فيه بكلّ شيء ويباع ويشترى أيّ شيء..

وعجبت من القوى التي تدفعها لمعرفة ماض طالما حاولت نسيانه والابتعاد عن كلّ ما يذكرها به.

منذ ساعة تقريبا كانت تمشي في نفس الطريق وذهنها خلو ممّا هي عازمة عليه الآن لتعود منه مثقلة بهواجس أخرى وأسئلة تفزعها. العودة إلى الماضي طريق شائك قد يحصل فيه ما لا نتوقّعه. تعرف هذا إلا أنّ الشوق إلى ماضيها مع هذا الرجل استبدّ بها وأغراها إغراء مثيرا حملها على المضيّ في المغامرة..

وانتبهت إلى وجودها في الشارع في ساعة متأخرة من الليل فوسّعت خطاها إلى منزلها لا سيّما بعد رؤيتها لرجل مترنّح أدركت أنه مخمور يتجه نحوها وقد علا صفيره وأصابها الهلع لمّا خاطبها دون تردّد بكلمات لم يجمعها نحو ناقرا صدره بسبابته:

- أنا.. أوه.. تكرهيني.. أقسم .. أوه.. لا أقسم..

هذه المرّة ركضت دون توقّف أو التفات إلى الوراء ساخطة على جنونها..

نامت ليلتها متقلّبة لم تجد إلى النوم سبيلا ولم يداهمها النعاس إلا فجرا عندها حلمت حلما لاح لها فيه رجل الماضي في بدلة حمراء قانية وتقدّم منها أمام حشد من الناس تعالت ضحكاتهم وربّت على كتفها ومدّ إليها زرّا خشبيا أسود أخذته منه وعيناها تتأمّلان ابتسامته الساخرة وأذنها ضجّت من تعالي رنين القهقهات.. ويتوالى الرنين ويضخم صوته.. وإذا هو رنين جرس الساعة.. ما أشبه هذا الرنين بضحكات أولئك

الناس وما أغرب عالم الحلم فما يلوح لنا فيه نؤمن به ونعتقده حقيقة لا شك فيها. فإذا استيقظنا تبدّدت تلك الحقيقة التي كنّا نعتقدها حقيقة واقعة ويكذّبها عالم اليقظة..

أحيانا من فرط شفافية الرؤيا لا نجد حدّا فاصلا بين عالم الأحلام وعالم اليقظة ونشكّ فيما إذا كانت اليقظة ليست إلّا خيالات وأوهاما إزاء المعرفة الحاصلة لنا عن طريق الأحلام..

إنها تؤمن بتفسير المنام وهذا الحلم في عرفها لا يبشّرها بالخير. فالأحمر رمز لثوب الشيطان والأسود لون النفاق ولا يحبّذ أن يجمع اللونان لأنهما نذيرا شرّ. لكنها لم تهتمّ لهذا النذير..

خلعت منامتها البيضاء ونظرت إلى جسدها الأهيف في المرآة ومررت راحتها نزولا تتلمّس جيدها ونهديها وبطنها وفخذيها لتعود بها إلى نفس المواطن صعودا تختبر بها مدى فاقة جسدها إلى اللّمس وارتعشت أوتار الشهوة لديها كارتعاش أوتار العود تحت أنامل صاحبها استعدادا للضرب.

وانتفض جسمها وأطرد عنه هاجس الشهوة لمّا علا رنين الهاتف..

أتاها صوت أمّها في الصباح على غير عادته قلقا:

- صباح الخير.. كيف حالك يا ابنتي ؟

أجابتها بكلمات طالما تردّدها ولا تعنيها:

- بخير.. الحمد لله ، كيف الحال هناك ؟ اشتقت إليكم جميعا.
قالت وقد رقّ صوتها وحمل إليها شعورا بالدفء:
.نحن أيضا يا عزيزتي.. متى تأتين ؟
ضحكت لأنّ كلّ مكالمة لا تخلو من هذا السؤال رغم يقينها أنها لن تفاجئها بزيارة غير زيارات العطل.
.كالعادة يا أمّي ، في عطلة الربيع.. إنها على الأبواب.
سمعت أمّها تتنهّد في ضيق فما توانت عن السؤال:
- ما بك أمّي ؟ لستِ على ما يرام..
- ابن أختك الصغير مريض في المستشفى.. حرارته مرتفعة وأجروا له تحاليل طبية كثيرة أسفرت في الأخير عن انتفاخ طفيف في قلبه.. ولا تسألي عن حال أختك ستجنّ المسكينة تبكي ليلا نهارا..
- كان الله في عونها.. وصفوا له دواء ؟
- كتبوا له شرابا يتجرّع منه ثلاث جرعات في اليوم.. والفرج من عند الله.. حافظي على صحّتك وكلي جيّدا.. ذاهبة إلى العمل الآن ؟
-أجل..
ثم خيّم عليهما الصمت لحظة قطعتها صفاء بقولها:
.تريدين مالا أمّي ؟
سمعتها تتردّد في حرج فواصلت:

-لا حرج بيننا أمّي ، سأبعث إليك ما تحتاجين عاجلا.
وودّعت أمّها وصدى دعواتها بالتوفيق والسلامة الستر يتردّد في أذنها ويحملها على التفكير في هذه الأم المخدوعة.. ماذا لو علمت بأمر ماضيها الذي تحاول العودة إليه.. ماذا لو علمت أن ابنتها نصف عذراء؟ أتنبذها كما ينبذ الخير الشرّ وتلطمها بلعناتها. إنّها تخشى أمّها أكثر من خشيتها الله.. وتشعر للحظة باشمئزاز من نفسها وبضآلة حجمها أمام صورة أمها.. لكنّها هرعت إلى المذياع تفتحه لتصلها منه ألحان لم تستحسنها إلا لأنها أذهبت عنها ما طرأ عليها من خواطر كئيبة تأباها ولكن تأتي إليها قسرا..
بقدر ما تحبّ أمّها تكره منظومة المجتمع الكامنة فيها.. أمها التي تذكّرها بالمحرّمات الاجتماعية المنحوتة في جسدها والمدجّنة في كلامها ومبادئها.. كم تكره شبح الحكمة الثقيل حين يتمكن من نفسها ويوهمها بأنّ الحياة الجديرة بالعيش هي التي تعاش دون الالتفات إلى متع الجسد.. إنّ الحكمة المتوارثة تنهانا عن مصادقة الجسم والإنصات إلى رغباته لأنه رذيلة وتدرّبنا على إماتة شهواته لتحصين النفس منه حتى تبقى ثابتة نقية ولا تُجَرّ إلى عالم التغيّر والارتباك... إنّها تعلّمنا كيف نموت.. أيمكن أن يكون جوهر الحياة ومغزاها في تعلّم الموت؟ ما جدوى أن نعيش وأجسامنا ميّتة؟

كانت ترتشف هذه الأفكار الجديدة متلذّذة بتجاوب نفسها معها وخرجت من منزلها بقناعات أخرى خلخلت منظومة المثل لديها ونخرت هيكلها فتداعت كبنيان قديم فعل فيه الزمن وليس في رأسها سوى هاجس واحد: متى يحيا جسدها؟؟

## في الغبش ..

سمعت بعض الضوضاء في البهو الطويل المظلم فأخفت ما تكتب تحت وسادتها.. إنها وقع أقدام ثقيلة تقرع الأرض بخشونة على إيقاع عسكري صاخب. وظلّت تتقدّم حتى ضخم صوتها وتوقفت عند باب غرفتها المضاءة. فُتح الباب بهدوء.. إنه الدكتور حسن ، تقدّم إلى فراشها يدفع كرشه أمامه وبصره يقلّب أركان الغرفة مفتّشا عمّا كانت تفعل في مثل هذه الساعة ولمّا اطمأنّ به الأمر قال لها بنبرة لائمة:

- لم لست نائمة ؟

- النوم ليس لأمثالي..

تجاهل ردّها واقترب منها متجهما وجسّ نبضها ثم رفع رأسها إليه قليلا وجذب أسفل عينها سائلا:

- يؤلمك شيء ؟

- رأسي

- أعرف..

صمت لحظة ثم واصل:

. يجب ألّا ترهقي نفسك.. حاولي أن تنامي ، سأعود إليك بعد ساعة ، إنْ لم تخلدي إلى النوم سأبدّد لك هذا الأرق بحقنة.. يجب ألّا تتكدّر صحتك إلى موعد الجلسة القادمة.
وخرج من الغرفة وخطاه الواثقة تُنبئ أنّه لن ينسى معاودتها.
استرخت ومدّدت جسمها في تثاقل علّ النوم يداهمها لكنه أبى واستعصى وأحست بقوة نفسية لمواصلة الكتابة وطرد الألم عن ذهنها. فاستوت مجدّدا وجذبت إليها ركبتيها سريعا تحاول أن تغتنم لحظات الإلهام النادرة وتدوّنها رغم الألم.. خسرت كلّ شيء وآن لها أن تكسب المكسب الحقّ فدوّنت:

{كلّما نزلت من التاكسي تبحث عنه بعينيها ويراودها شعور قوي أنّ القدر سيجمعهما يوما.. لكن أين؟ وكيف؟ هذا ما تجهله..
تودّ لو كان بإمكانها أن تتنكّر في زيّ لا يعرفها فيه وتذهب إليه ، تودّ لو كانت اللغة في النفوس خرساء كي لا تعكّر صفو اللقاء..
وباتت تغالي في الاعتناء بنفسها وقد يكون في تأنّق المرأة وتبرّجها صورة من صور إرضاء رغبتها في الوصال.. فيُخيّل إليها أنها حيث ذهبت تتبعها عيناه وترعاها وتتغزّل بها وتدعوها ، أجل تدعوها..

أن تدعوك عينان إلى الوصال في أيّ مكان ليس إلا وهما فاحشا جميلا يشعل فيك شموع اللذة ويحملك قسرا إلى دنيا اللامعقول..

جرّبت المعقول وسئمته فما بالها لا تتمرّغ في اللامعقول والنفس تتوق إليه أيّما توق.. لم الكبت والعيش برغبات ملتوية وبتضادّ بين قوى النفس.. أخيرا لم المقاومة ؟

كانت دائما تستغرب اللّاوفاق بين السعادة الحقيقية والعقل.. لم توجد السعادة خارج أسوار العقل تفرض عليه حصارا منيعا علّه يستسلم ويقلع عن جبروته فيطيح قلاعه ويخرج إليها سعيدا بهزيمته..؟

لكن أنّى للعقل القدرة على أن يعصف بكيانه الأثري بذريعة السعادة ثم يرزح تحت وطأة العدم..؟ أيكون العقل فعلا سمّا يفسد مشاعرنا ويقتل الحقيقة فينا؟ كثيرا ما يفتن الناس بالعقل لكن قلّما يحبّونه إذ لا يؤثر فينا إلا ما يوحي به القلب.

واشتدّت الرغبة في نفسها ولم تعد تملك قوة أمام إغرائها واكتسحتها مساحة من العبث أملت عليها عطلة عن العمل لتتفرّغ تفرّغا كلّيا لركوب أمواج الرغبة العاتية التي تتنافى مع مبادئ مهنتها.. تريد أن تبتعد عن كلّ ما من شأنه أن يدغدغ خيول العقل فتصهل في نفسها من جديد..

وانتظرت العدّ التنازلي للقدر لتبدأ لحظة الجموح..

كانت تغادر البيت بعيد العصر في ثوب أحمر تعمّدت ارتداءه لجلب الأنظار إليها وأوقفت سيارة أجرة.. جلست إلى جوار السائق تلوك علكا تمضغ معه مشاعر الرهبة من الماضي ودون تردّد قالت للسائق:

- أوصلني إلى "تاج مرحبا "

كان المكان شبه خال من الروّاد بينما عملة المحلات ما زالوا يلمّعون واجهات المحلات ويمسحون البلاط اللامع.. هي تدخل البناية لأوّل مرّة وأبدا لم يخطر ببالها أن يكون الماضي متربّصا بها في ركن من أركانها.

استوقفتها أوّل واجهة اعترضتها.. ثياب جميلة وأذواق رفيعة وألوان راقية وأرقام ثرية وعيون معدمة تتطلّع من الداخل تفترسها بوقاحة لا تنتظر شاريا بقدر ما تنتظر دخول علاقة..

أ لم تأت هي إلى هذا المكان من أجل إحياء علاقة. أجل وما الضير في ذلك؟ بل ما الفرق بين أن تشتري حذاء أو رجلا.. كلاهما يُنتعل ابتسمت لهذه الفكرة وحمدت الله أنها ذكرتها سرّا وإلاّ لانتفض جلّ الرجال ثأرا لكرامتهم ورموها بكلّ الأحذية التي يملكون..

كلّما خطت إلى الأمام تفاقم توترها ويتراءى لها وجهه أينما حطّت عينيها.. وانعطفت يسارا فوجدت كافيتيريا هرعت إليها

للجلوس والتقاط أنفاسها المضطربة وهربا من الأجواء التي توحي بها المحلات ومبيعاتها وأصحابها..
جاءها النادل الوسيم مبتسما فطلبت عصير برتقال تستجدي به راحة. ولم يخذلها المشروب أثلج صدرها وهدّأ من روعها وباتت مستعدّة لمواصلة دورتها في هذا المركّب التجاري العظيم..
وراحت تتفحّص الواجهات من جديد وشوقها إليه يجعلها تحثّ خطاها تستعجل لقاءه قبل أن يعاودها التوتر..
ولا تدري كم مرّ من الوقت قبل أن تقف أمام محلّ تتأمّل فيه بعض الأحذية متذكرة قول أختها "عندما أنظر إلى حذائك أعرف من تكون"لكنها شعرت بظلّ نظرات تقتحمها من الخلف ، التفتت فاجتاحت جسمَها موجة من الوخز المؤلم اللذيذ لم يثره فيها سواه.. كان واقفا في باب المحلّ المقابل يسدّ المدخل بقامته الطويلة ينظر إليها بعيون بكماء لا تفصح عن شيء.
رأسها أجوف إلا من سؤال واحد أتنكر الماضي في لحظة وتمضي أو ترحّب به وتقف عنده.. استغربت كيف تكون الرغبات شديدة الوضوح بعيدةً عن المنال وضبابية مربكة عندما يظفر بها قلبك فتكاد ترمي بك في اللاشيء.

ويتلاشى استغرابها لمّا تقدّم منها وناداها بصوت لا ينمّ عن شيء:

- صفاء.. جميل أن أراك بعد هذه السنين.

هل كانت تسعد لو قال لها "اشتقت إليك "؟ لا تعلم.

سمعته يقول:

.مازال صمتك يغريني..

أجل إنه الماضي يتكلّم ، هل هي راضية الآن ؟ لا تدري.

كانت عيونها شاخصة فيه ترنو إليه طويلا والكلمات عالقة في حلقها وبدا لها كأنه الحاضر.. هو الذي كان دائما الماضي.

سألها في عتاب:

.ألن تصافحيني ؟

مدّت يدها إليه متظاهرة بالعفوية وأجابته:

.آسفة.. إنه وقع المفاجأة.. مرّ زمن طويل لم أرك.. لكن ماذا تفعل هنا ؟

.هذا محلّي.. تفضّلي إلى الداخل..

لمّا دخلت كانت البائعة بصدد النزول من درجات السلم الواقعة في قاع المحلّ حاملة بعض صناديق الأحذية فهرع إليها عمر وهمس في أذنها فعادت إلى صعود الدرجات في رشاقة ورأسها الأنيق مليء بالأسئلة.

جلست على كرسي فأتى بآخر وجلس قبالتها وقد بدأت نظراته تسترجع بريقها. وتعانقت العيون وزحفت نحوها رائحته تلدغ ذاكرتها وتذيب المسافة بين الكرسيين. وحوّلت عنه نظرها إلى سقف المحلّ وجدرانه هربا من نداء جسدها وبادرته قائلة:

- من أين لك هذا ؟

- من فضل ربّي.

- لم أعرفكَ مموّها.

- لم أعرفكِ فضولية.

وقاطعتهما عودة البائعة وفي يدها صندوق ، نهض إليها وأخذه منها وهمس إليها مجدّدا فخرجت هذه المرّة.

اقترب منها ومدّ إليها الصندوق ثم سألها في مرح:

.ألم تأت لأجل هذا ؟

رمته بنظرة ذاهلة لكنّها فتحت الصندوق قائلة:

.ما أدراك بما جئت لأجله ؟

وحدجته بنظرة أخرى ملؤها الارتياب وتمتمت بعد أن أطلّت على الحذاء الأسود الجميل داخل الصندوق:

- جميل.. لكن جئت أبحث عن شيء آخر.

- عنّي ؟ ؟

دعت الله في سرّها أن تضبط أعصابها وردّت:

- لم تبحث عنّي حتى أبحث عنك.

- لا أرغب في الحديث عن الماضي.
لكنّها جاءت لتؤاخي الماضي.. فما باله يسد المنافذ أمامها.
وترامقا في صمت مشحون بالعتاب والألم.. وربّما الشوق.
وفكرت في قلق ثم قالت:
.الماضي هو ما يربطنا الآن.. نحن بدونه غريبان.
قال في حذر:
.أنت في نفسي خارج أسوار الزمان والمكان.. بل كلّ الأزمان تضمحلّ فيك وأبدا لن تكوني غريبة في نفسي..
وسفعتها رياح الشوق إليه وألمّت بها لحظة ضعف جميلة حثتها على البوح له بفشلها في نسيانه. لكنّها تردّدت. وسمعته يستطرد في شيء من التحدّي:
.أريدك.. ماضيا وحاضرا ومستقبلا.. أريدك.
المفروض أن تسعد لهذا الاعتراف لكنّها قالت بلا حماس وبلهجة فاترة:
.لا أعرف كيف تشرّع لنفسك هذه الرغبة بعد كلّ هذه السنوات وأنت لا تعلم عني شيئا.
.رغبتي شرعية بما أنّي أشعر بوهجها يتدفق ليعمّ كياني وليس للزمن أو غيره سلطة على مشاعري.
وتجهّم وجهه وهو يسأل:
-تزوّجت ؟

أجابته ساخرة:
-لنفترض ذلك. هل سيبقى وهج رغبتك متدفقا ؟
ردّ في حدّة أرعشتها:
-أنت هي أنت.. عزباء كنت أو زوجة ، بعيدة أو قريبة ، تحبّينني أو تنفرين منّي ، حيّة أو ميّتة.. أنت ألمي الأول والأخير.
- أفهم أنك لم تتزوج بعد ؟
- ولن أفعل إلا إذا..
وقاطعته في اندفاع:
-ومن تكون...
كادت تفضح نفسها بسؤاله عن الشابة التي في منزله لكنّها عدلت عن ذلك في اللحظة الأخيرة. نظر إليها مستفهما إلاّ أنه لم يسألها لدخول العاملة وفي يدها طبق عليه كوبا عصير.
همّت صفاء بالخروج فشدّ مرفقها بلطف قائلا:
- اشربي نخب لقائنا.
- شكرا.. لا أستطيع شرب المزيد لأني منذ لحظات كنت أشرب كوب عصير في الكافيتيريا المجاورة.
- وحدك ؟
ابتسمت ولم تجبه وولّت خارجة.. فلحق بها بعد أن وضع الحذاء في كيس أنيق ورافقها إلى الشارع قائلا:

- هذا الحذاء هديتي إليك.
- بأيّ مناسبة ؟
- بمناسبة القدر الجميل الذي جمعنا مجدّدا.. ولن نفترق.
قال الكلمة الأخيرة ضاغطا على حروفها في ثقة غريبة.
ثم استطرد دون أن ينتظر جوابها:
-أعطيني عنوانك.
سعدت في سرّها لطلبه عنوانها ولم تشعر بهذا الفرح لمّا باح لها بحبّه وكأنّها لم تأت للبحث عنه إلا لتملي عليه عنوانها ورقم هاتفها لا أن تسمع منه اعترافا بحبّ لم يلق صدى في نفسها.
وأوقف لها تاكسي وقال هامسا وأنفاسه تصلها حارة تعدها بقبلات مثيرة:
-سأطلبك..
واستدرجها كلامه إلى حلم جميل تراءى لها فيه جسدان ملتصقان كلاهما يحاول اقتناص ما لذّ له من جسد الآخر على فراش تبلّل عرقا واهتزّ شهوة.. بات واضحا أمامها الآن سرّ عودتها إلى الماضي وما أغرب أن تجد الماضي كما هو في انتظارها فاتحا ذراعيه يستقبلها دون أسئلة أو فضول..
جسدها هو الذي ينادي ماضيها رغم نفور النفس منه..

نفسها الآن بين قوتين تتجاذبانها.. قوة العقل التي بدأت تشهد فشلا ذريعا وقوة الجسد التي استبدّت بخيول نفسها وأمسكت لجامها تقودها حيث تشتهي..

عادت إلى البيت وكلمة "سأطلبك" طردت شبح التعاسة والألم في ذاتها ولاذت بعالم خاص بها يتيح لها السعادة بتلبية غرائزها التي ضنّ عليها الحاضر بإرواء غليلها وتركها في حالة من الفاقة تحوّلت إلى آلام هائلة عجزت الحكمة عن إماتتها..

اكتشفت أنّ هذا الرجل محطّم الهموم.. ما إن لقيته حتى نزعت عن وجهها برقع الحزن ووضعت برقع السعادة.. عودة هذا الرجل إلى حياتها يوفّر لها إحساسات محبّذة إلى حدّ لم تعد معه قادرة على الشعور بأيّ إحساس مزعج.. لم يعد يزعجها أن تفكّر في جموحها المجنون واندفاعاتها المنحرفة.. إنها طريقتها الوحيدة للاحتماء من الألم..

وباتت ذكراه حيّة في نفسها تمضي بها قدما إلى تشييد عالم آخر ، عالم تزول منه المظاهر الشاقة على النفس وتقوم مقامها مظاهر أخرى أكثر انسجاما مع رغباتها..

هي تعرف ، تعرف أنّ الكائن الذي يدفع به تمرّده اليائس إلى سلوك هذا النهج لبلوغ السعادة عادة لا يصل إلى شيء إذ سيجد الواقع أقوى منه وسينقلب مجنونا لا يمدّ إليه أحد يد

المساعدة لأنه مصاب بالهذيان.. لكنها لم تعد تعبأ بما دجّنته الحكمة في نفسها.. إنها الآن تريد أن تؤمّن سعادتها بأيّ ثمن تضربها به الحياة.

وانتظرت.

انتظرت هاتفا ينقل إليها صوته لتتملّص به من الواقع وتحلم بلحظات متعة طالما تاقت إليها وافتقدتها.

وخافت أن يفسد عليها طول الانتظار حلمها وسعادتها باللذة الوشيكة ففتحت التلفزيون تبدّد به ثقل الوقت.. شاهدت مطربا غريب الأطوار يغنّي والعرق يتصبّب من جبينه وعيناه غائرتان محمرّتان كعيني مخمور قد ركع على ركبة واحدة يهزّ كتفيه هزّا عنيفا موجّها مضخم الصوت إلى الجمهور المردّد لأغنيته والمتكالب رقصا.. ثم هبّ المغنّي من ركوعه يقفز على الركح قفزات بهلوانية متتالية كقرد يتواثب فرحا. وفي أسفل الصورة تبثّ أخبار عاجلة في شريط طويل أحمر يقول: مقتل أكثر من عشرة فلسطينيين في مواجهة عنيفة مع القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية...

ما أشدّ التنافر بين ما يُشاهَد وما يُقرأ.. فظيع أن نرى طربا عربيا راقصا مصحوبا بأخبار موت شعب عربي.. وأفاقت أن أفكارها بدأت تأخذها بعيدا وتعيدها إلى عالم الهموم الذي

تأبى الرجوع إليه. لم تجد عسرا بعد إغلاق التلفاز في الإبحار مجدّدا في عالم لذّتها المنتظرة مع رجل الماضي.
ورنّ الجرس.. جرس الباب. انزعجت في البداية ثمّ تفكرت ، أيكون هو وراء بابها ؟ ولم تتردّد كثيرا وهرعت تفتح للطارق.
إنه هو.. ما أجمل الحياة في هذه اللحظة.. ابتسمت الشفاه وتراشقت العيون وتلامست الأيدي وانتفضت القلوب تصرخ شوقا وظمأ. لكنها لم تخف نظرات الاندهاش وقالت في مرح:
-توقعت اتصالا هاتفيا لا زيارة مفاجئة في هذا الوقت من الليل.
- لم أستطع مقاومة رغبتي في رؤيتك في أجواء حميمية.
وأشار بعينه اليمنى إلى لفافة يحملها في يده إشارة فهمت معناها لكنّها تجاهلتها قائلة في حنق مصطنع:
- ما هذا ؟
- سمك مشويّ نتعشّاه سوية.. لا تريدين ؟
خفضت بصرها وغمغمت قائلة:
.لا أقصد.. لكنّ الواجب أن تعلمني قبل قدومك.
ابتسم ودفعها إلى الداخل مغلقا الباب وراءه وقال بعد أن وضع اللفافة على الطاولة:
. الواجب.. لا واجب بيننا. الواجب يفسد لحظات السعادة.. اتركينا بين أيدي القدر المباغت ترسم الصدف حكايتنا.

جلس على الأريكة العريضة وأجلسها جانبه واستطرد:
- أعرف عنك كلّ شيء منذ رحلت عنّي.. أنت مثلي يا حبيبتي لم تجدي السعادة إلاّ في الألم وأنا ألمك الذي فررت منه يوما ، لذلك لم تستطيعي نسياني وحاولت البحث عنّي مثلما بحثت عنك. بحثت عنك في نفسي فوجدتك ألما ماسكا بأغواري.. وما الألم في خاتمة المطاف إلا الإحساس ولا وجود له إلا بقدر ما نشعر به ونحن لا نشعر به إلا بفضل بعض الاستعدادات المتوفرة في جسمينا.. جسمي وجسمك يستغيثان السعادةَ بعد أن أدركا توترا عاليا وتعاسة ثقيلة.
رفعت بصرها إليه وقالت في ذهول:
- السعادة.. أشكّ أحيانا أنّه لم يدخل في خطة الخلق البتة أن يكون الإنسان سعيدا.
ضحك في خفة وقال:
- طاقاتنا على السعادة محدودة أساسا بتكويننا وطبيعتنا.. نحن جُبلنا على نحو لا نستطيع معه أن ننعم بمتعة عارمة إلا إذا قامت على أساس من التضاد والتناقض أما ثبات الأحوال فلا يوفّر إلا النزر اليسير من اللذّة.
- أ لا ترى أننا نهذي ؟
- لكننا نسعد بهذياننا.
صمتا لحظة ثم قال بعد أن جال ببصره في أركان البيت:

.بيتك جميل.. كما توقعته.
رمقته في ريبة وسألته:
- كيف تعرف عنّي كلّ شيء ؟
- لم أتوان قط عن استقصاء أخبارك منذ رحلت.. كنت أراك أحيانا من سيارتي تقطعين الشارع أو تمشين على الرصيف. أتأمّل فيك لحظة ثم أمضي لشأني لتراودني صورتك ليلا فأحتضن ذكراك وأنام.. لم تغيبي عنّي يوما.
اندهشت لقوله المنطبق عليها.. ما أغرب النفس تشعر بما لا ترى ، لطالما تأنّقت لأنه يخيّل إليها أنّه يراقبها وكانت تسعد لهذا.. لطالما احتضنت ذكراه ليلا لأنه يخيّل إليها أنّه يحضنها هو الآخر وكانت تجد في هذا بلسما ومتعة.
سألته بلا تردّد:
- لماذا ؟ لماذا لم تحاول طيلة هذه السنوات أن تكلّمني بما أنّك تراني ؟ لم طلبت منّي عنواني إن كنت تعرفه ؟
- كنت واثقا أنك ستعودين يوما مهما طال بك الزمن وستبحثين عنّي حين تدركين اليقين وتكتشفين ألّا أحد يفهمك ويمتعك مثلي.. أمّا غرضي من طلب عنوانك أن أتأكّد من مدى لهفتك على العودة إلى ماض هجرته بنفسك.
أشاحت بوجهها عنه وقالت متضاحكة:
.لكنّي لم أبحث عنك.. إنها مجرّد صدفة.

أمسك ذقنها وأدار وجهها إليه ونقر أنفها معاتبا:
. لا حرج في الحبّ يا عزيزتي.. كما أنّي لا أعرف فتاة أخرى تضاهيك جمالا جاءت تبحث عنّي في منزلي.
لمّا رأى توتّرها واصل في مرح:
- زوجة أخي وصفت جمالك فعرفت أنّك أنت.. ليلتها نمت عميقا آمنا أنك ستعودين للبحث عنّي عندما يقف تأرجحك.
- زوجة أخيك ؟ ماذا تفعل في منزلك ؟
- أخي وزوجته يقطنان معي.. نحن شريكان في المحلّ التجاري.
- ألن تخبرني بما حصل وغيّر مسار حياتك على هذا النحو ؟
-لا شيء مميّز.. ككلّ العائلات توفي الأب وحظي كلّ فرد بنصيبه من الميراث.. وفي الواقع أنفر من وظيفة التعليم والتعليم لا يناسب أمثالي. واستفاقت فيّ ميولاتي التجارية فاستثمرتها بذكاء وحققت ما أنا عليه اليوم.. هذا كلّ شيء ببساطة.
- أجل.. شيء بسيط.
- تسخرين منّي ؟
- لا.. أبدا.
سكتت هنيهة ثم أردفت:

. لكنّك لم تنقطع عن الشعر ولم تلهك التجارة عن الوهم.. قرأت ديوانك. قصائد جميلة وروح حزينة.. أتعلم شيئا منذ قرأت ديوانك تغيّر حالي وما انفكّت أمواج الماضي تلطمني وتعبث بي عبثا عنيفا..

أربكها لمّا داعب مؤخرة عنقها بأنامل رقيقة صعودا ونزولا وهو يرنو إليها وقال في صوت لا يغري إلا بالحبّ:

. لا نستطيع أن نعيش دون وهم ، دون شعر ، دون ألم ولا وجود لهذه المعاني إلاّ بقدر ما نرغب فيها وإن رغبنا عنها كان العدم.

هزّت رأسها مذهولة تأييدا لما قال وقد أخذتها نشوة اللّمس وأسكرها دفء صوته ووهج أنفاسه القريبة منها.. يا لها من متعة.. متعة الأنس التي حدّثها عنها عمر في الماضي ولم تفقهها إلا حين افتقدتها.. كم من أمر نقتات به من حيث لا نشع ، يتخلّل كياننا ولا ندرك له شأنا إلا عندما يغيب عنّا.

ولم تجد حرجا في أن ترمي برأسها على كتفه وترجّل بعض الشعيرات البارزة من فتحة قميصه وما كان منه إلا أن ضغط عليها بقوة وتمتم:

.ما ألذّ أن أعود إليك.. ما أبدع لمسك.

رفعت إليه رأسها وشفتاها منفتحتان قليلا متوهّجتان رغبة والتقت أنفاسهما حارّة ثائرة خطيرة تنذر بعاصفة من اللذّة الجامحة لجسدين يتألّمان شهوة..

## في السحر الأعلى ..

ثقل القلم فجأة وارتعشت أصابعها وساء بصرها فبات الخطّ أمامها ضبابيا وعبثت بها الآلام.. رأسها سينفجر واستبدّ بها دوار خبيث جعل القلم يتدحرج من يدها دون أن تشعر وتتمدّد على فراشها متأوّهة وما انفكّ الوجع يتزايد ويتفاقم يشلّ حركتها ويفقدها الحسّ فيرمي بها في غياهب الضياع فتخلط بين الباطن والخارج ، بين المذكّر والمؤنث ، بين الفضاء الخاص والفضاء الخارجي..

دخل الدكتور حسن مصحوبا بممرّضة شابة حديثة الوجه تبدو من خلال اهتمامها البالغ بكلام الطبيب أنها متربّصة. سمعتها تسأله عندما تقدّم من فراشها ورأى شحوب وجهها وقد علت تأوّهاتها:

- ما بها ؟

لم يجبها لانشغاله بفحصها ليدرك بعد لحظة أنها تعاني من خدر في أجزاء مختلفة من جسمها. وما لبث أن قال لها موضّحا:

. هذه الحالة التي حدّثتك عنها ، أتابعها منذ ستّة أشهر إنها تشكو الآن نوبة من نوبات اللاشعور التي تفقد فيها القدرة على

القيام بأية حركة نتيجة الآلام والتشنّجات. إنها تعاني من جروح مخيخية تصيبها بين الحين والآخر بالَخدر فتصبح غير قادرة على التعرّف على جزء من جسدها كأن نلمس رأسها أو يدها فتعجز عن تعيين المكان الذي لمسناه. إلا أنها تستطيع مع ذلك أن تقوم ولو كانت مغمضة العينين بكلّ الحركات الضرورية للحياة التي تعوّدت عليها بكلّ دقّة وسرعة.

ورغم أنها لا تستطيع أن تشير إلى أحد أطراف جسدها إذا طلب منها ذلك فإن يدها تتجه بكلّ مهارة وبدون تردّد نحو مكان من جسدها لدغته بعوضة.

سألته الممرّضة ورأسها ما انفكّ يهتزّ فهما وتأييدا لما يقوله:

- وكيف تفسّر ذلك ؟

- إنها أعراض جسدية صادرة عن عوامل سيكولوجية تكمن فيما عانته هذه المرأة من صراعات لا شعورية قائمة بين دوافع جسدها ورغباته من جهة وبين الموانع والمحرّمات الاجتماعية من جهة أخرى..

فجسدها المريض المتألم الراغب لا يمكن معالجته بالعقاقير والأدوية إنما حسبه أن يلبّي رغباته التي يحرّمها المجتمع حتى يتخلّص من خدره.. ونزاعها اللاشعوري لم تلق له حلّا لأنها ممزّقة بين جموح الرغبة وجبروت العقل.. صراع جعل فكرها وجسدها لا يتعايشان..

تسمع.. تسمع بعد أن هدأت الأوجاع شيئا فشيئا صوت الطبيب يسألها ملوّحا بالدفتر في يده:

.ماذا تفعلين بحقّ الله ؟ تكتبين ؟

أجابته في توسّل:

- اتركه لي أرجوك.

- تريدين الدفتر ؟

وتفاجأ لمّا مدّت يديها وأخذت منه الدفتر وحملته إلى صدرها. فسألها وقد قطّب جبينه:

- بم تشعرين ؟

- أشعر بمتعة رائعة. كم أحببت هذه اللحظة.

سألها في احتراز بعد أن أيقن أنها تخلط بين عالمي الشعور واللاشعور:

- عَمّ تكتبين ؟

- جسدي الراغب يكتب ويصنع لرغباته تاريخا.. أنت هل لجسدك تاريخ ؟ لا ، تاريخك في مجدك وليس في جسمك..

- أنت تهذين.

صمت قليلا وسرعان ما أضاف:

.أين يدك ؟

لم تحرّك ساكنا فأطال النظر إليها وسألها:

.يدك التي بها كنت تكتبين ، ألا تشعرين بها ؟

رأى القلم الملقى على الأرض فانحنى يلتقطه ثم أشهره في وجهها قائلا:

. هيّا حرّكي يدك وخذي هذا القلم.. ألا ترغبين في مواصلة الحديث عن جسدك ؟

ذهل لمّا استجابت لطلبه دون تردّد واتجهت يدها نحو القلم بكلّ سرعة أدرك معها أنّ السلوك الجسديّ لا يمكن تفسيره بلغة المثيرات الخارجية بقدر ما هو ردّ فعل إزاء موقف دالّ مؤثّر في الجسد نفسه.

ساعدها على الجلوس وسألها:

- متى كتبت هذا ؟

- الليلة.

- لماذا الليلة بالذات ؟

- لا أعرف.

- بلى ، تعرفين.

- علّي سئمت الألم وأحاول اقتناص لحظات متعة صادقة في دنيا الكتابة حيث تغيب نواميس المجتمع ويفعل الإنسان ما يحلو له عساه يدرك نزرا من السعادة.. علّي أريد أن أخلّص جسدي من مختلف الموانع ليحظى بتلبية رغباته المكبوتة على أرض الأدب دون رقيب يجبره على الكبت والخضوع والطاعة المميتة..

ابتسم الطبيب قائلا:
.يفرحني قولك هذا ، علّ الفرج قريب.. لكن حاولي أن تنامي.
وربّت على كتفها ومضى خارجا تتبعه الممرّضة.
عادت إلى دفترها تفتحه في شوق وتلهّف من أعياه الانتظار وزفرت بقوة كأنها تطرد من ذهنها رواسب الألم الذي ألمّ بها واستأنفت الكتابة بأصابع بالكاد تخلّصت من خدَرها:

{استيقظت من نومها على غير عادتها قبل انبلاج الفجر وقبل أن تأذن لها ساعتها بالنهوض كأنّ قوى عجيبة كامنة في جسدها حرمته النوم وتهمزه بين لحظة وأخرى تفيقه من خموله كلّما نفذت جرعة اللذة وانتهى أجلها ليقتات بجرعة أخرى تُسكن آلام الشهوة فيه.
ما أغرب أن ترى جسده العاري ممدّدا إلى جانبها فتستغرب من يكون ؟ إلّا أن ّجسدها يهفو إليه فينهال عليه قبلات وعضاّ خفيفا يزيدها نشوة بمذاق الحرية الهاتكة لعفّة العقل.
ويحتدّ الصراع فجرا بين جسدين يتمرّغان على فراش مهتزّ يفضح لأذنيهما صوت اللذة.
والعجيب أن هذه اللحظات أقصر من أن يكون لها وجود إذ سرعان ما يندثر أثرها وتتلاشى نشوتها ولا يبقى منها في البال سوى أزيز الفراش المثير لشهوة جديدة.

وتركته يتشفّى في جسدها إلى أن تمكّن منه تمكّن الصائد من فريسته.. آلمها وأدركت أنه ألم الفضيحة.. ألَمٌ أقصاها من قائمة العذارى.

هدأت العاصفة ورانت عليهما لحظة صمت واجمة. ثم سمعته يتمتم وكأنه يعتذر:

.نتزوج ؟

ذهلت لطلبه.. لكنها ابتلعت ريقها وأجابت والتعب يثقل جفونها:

- لماذا ؟ تكفير عن ذنب ؟

-ربّما..

- لا تقلق.. أردنا هذا وكفى.

- الزواج حصانة اجتماعية لا بدّ منها.. كما أنّي أحبّك وأريدك.

أزاحت عنها اللحاف كمن يزيح عنه تهمة وهمّت بالنهوض لكنّه شدّها من زندها سائلا:

- إلى أين ؟ تذهبين إلى العمل ؟

- لا.. إني في عطلة مرض.

تضاحكت ثم واصلت كمن يستدرك خطأ:

.بل قل في عطلة بحث عن السعادة.

سألها بلهجة مبتزّة:

.أ وَمازلت تبحثين ؟

هزّت كتفيها دون أن تجيب. لكنّه عاد يقول:
. ما بك؟ فكرة الزواج لا تغريك؟ جميل أن يتهادن الحاضر والماضي. لا تفكّري كثيرا وثقي في القدر.
صمت لحظة وواصل:
. لا أتحمّل أن تبتعدي عنّي مجدّدا.. يناسبك أن نتزوج في بداية الصيف؟
أجابته في شرود غامض:
.كما شئت.
رهيب ما تشعر به في هذه اللحظة.. الزواج مقولة اجتماعية تأسر رغبات الجسد في قفص شرعي يحدّ إمكانياته في تحقيق اللذة العارمة وهي التي باتت تأبى القيود.. لم تشعر أنّ ما حصل إثم يجب مواراته وتحصينه بقيد الزواج.
ولم تمنع نفسها من التساؤل هل كلّ الأجساد المتزوجة سعيدة مستمتعة؟ عَمّ يبحث الزوج إذن عند اندفاعه نحو الخيانة إن كان سعيدا؟ ألا يكون باحثا عن اللذة الحرّة أو حرية اللذة؟ كلّما تحرّرت أجسادنا من صدإ القيود بلغت أوجها من اللّذة في حين تضعف ذروتها إذا كبّلناها إلى أن تضمحلّ شيئا فشيئا وتُفقد فينبري الرجل يبحث عنها في أجساد أخرى غير جسد الزوجة..

كانت تريد أن تعدل عن موافقتها.. هي لم تعد إلى الماضي لتكبّل الحاضر وتميت المستقبل. أرادت فقط أن تحرّر حاضرها من ذكرى ماضيها لينفتح على المستقبل لكن ما حصل هو أنّها تسير إلى الأمام تضرب في الأرض ضربا عشوائيا لأن عنقها ملتفتة إلى الوراء.

لكنّها لم تنبس ببنت شفة.. لا تعرف لمَ يخذلها لسانها في اللحظات الأكثر تأثيرا في مسار حياتها.

نظرت إليه بعينين متوسّلتين لكنّه لم يرهما لأنه انهمك في ارتداء ملابسه وجسده يشعّ سعادة مبهمة. ثم انحنى عليها ووضع قبلة على خدّها وقال في حماس:

. علينا أن نستعد لهذا الزواج المباغت يا عزيزتي. هناك عدّة ترتيبات يجب الإسراع في إنجازها.

ثم خرج وتركها فريسة لصمتها.

**********

ما أغرب أن تراه كلّ يوم. في الصباح تتركه نائما في فراشها لتلتحق بعملها الذي لم يعد له معنى. متى تجد الشجاعة الكافية لإقصاء نفسها من أسرة التربية وترك مكانها لمن هو أهل للقيام برسالة التعليم. باتت تكره الجدران المغلقة حيث تشعر بالهواء راكدا عفنا لا سيما في منزلها عندما تكون بين أحضانه. وفي الخارج يجتاحها شعور أهوج يقتلعها من حقل الواقع الآسر ليرمي بها في حقل ملغوم بأحلام الحرّية الجامحة العاصفة بكلّ ما يكبّلها من مبادئ وأشخاص وأشياء.

هي تدرك تماما خطورة مشاعرها الشاذة وما تمليه عليها. لكن ماذا يفعل العبد إذا أعتقناه وحرّرناه ، أيرضى يوما أن يعود إلى العبودية مهما كانت الإغراءات ؟

والزواج يعني وفاء ، مسؤولية ، عطاء ، قناعة ، يعني في الختام قيودا..

تحبّه ذكرى في نفسها ترنو إليها كلّما شاءت ذلك.. أجل ما الحبّ إلا الشوق الظامئ إليه وما السعادة إلا الرغبة الشديدة فيها وبتحقيقك لطلبتك تنطفئ الشعلة وتذهب عنك السعادة كما لم تكن قطّ. كان عليها أن تؤاخي الماضي دون أن تترقّب منه شيئا.

ما أعقد النفس ، ثبات الأحوال لا يوفّر لها إلا النزر اليسير من المتعة وكلّ ديمومة لوضع كان يرغب فيه الإنسان وينعم فيه باللذة لا ينجم عنها سوى هناء فاتر.
هي تبحث عن اللذة الجامحة وما عادت تجد في ماضيها العائد مطمحا في السعادة.
قال لها يوما:
- تغيرّت كثيرا.. لم يعد صمتك شفافا وأضحت نظراتك فاترة.
- ومن منّا لا يتغيّر ؟ أنت ألم تتغيّر ؟
لم يجبها وتفاجأت لمّا تناول سيجارة وشرع ينفثها في بطء محملقا فيها ثم قال:
- حبّي لك لا يتغيّر
- أنت لم تسألني يوما هل أحبّك
- لأني أخشاك
تضاحكت وسألته:
- كيف تحبّ من تخشاه ؟
- بل قولي لمَ نخشى من نحب ؟
واصل بعد لحظة تفكير:
. كلّما ازداد شعور الحبّ تدفقا في نفوسنا امتلأنا خوفا من ضعفنا أمام من نحب والخوف يحرمنا السعادة..
قاطعته في انفعال:

.ألم تتفطّن بعد إلى عقم علاقتنا في الماضي والحاضر ؟
همس بعد أن أطفأ سيجارته في شيء من التوتر:
.أنت واهمة إن تخيّلت أن نفسك ستخصب مع غيري.. أنت تبحثين عن شيء تائه فيك وقد يكون غير موجود. لا تجعلي الوهم يعبث بحياتك.
تأملت بقايا السيجارة المدعوسة بأصابعه وقالت:
.ما أشعر به ليس عبثا.. لا شيء في النفس عبث بل هي حقائق يجب أن نعترف بها شئنا أم أبينا.. بل الزيف هو ما نحاول أن نقنع به أنفسنا وبه نحدّ من مطامحنا في السعادة.
صمتت قليلا ثم استأنفت:
- ما أشبه الشهوة بهذه السيجارة المنطفئة كانت تشتعل لذة بين شفتيك لكن سرعان ما فترت شعلتها وخبا بريقها فآلت إلى الرماد واللذة الجسدية أقصر من أن تعيش حياة سيجارة.. وما ألذّ أن تجرّب الشفاه مختلف أنواع التبغ اندفاعا وراء اللذة الصادقة.. ألم تشعر بعدُ أنّي هتكت عفّة العقل وخرقت قوانين اللعبة وتقت إلى عيش الحقيقة دون أضغاث.
- لكنّك وقعت في وهم الجسد ، وهم جامح هائج أخشى أن يقضي عليك قبل أن تجدي سعادتك المزعومة.
قالت في جرأة مقصودة:

- ألم يحدث لك أن سئمت من جسدي واشتهيت جسدا غيره؟

.لا أسأم من جسد أحبّ صاحبته.. وإن حدث فما أترك نفسي تذروها الشهوات الجسدية العابرة.

-أنت تفصل بين الجسد والنفس والحقّ أنهما شيء واحد.. فالجسم لا يعدو أن يكون إلا مرآة عاكسة لصدق نفوسنا لكننا لا نتوانى عن تكذيبه ولعْن كلّ ما يأتينا منه من حقيقة وننصب معه العداء ونطعنه برماح العقل حتى يلفظ أنفاسه..

وتلك الشهوات المباغتة ألا تعكّر صفو الحب وتجعلك توقن أنّ نفسك تدعوك إلى حبّ جديد وتحثّك على التخلّص من زيف مشاعرك البالية.. بموت الشهوة يموت الحب هذه الحقيقة التي نخشى الاعتراف بها ونكابر عليها ونتعنّت في تصديقها إلى أن تخبو نفوسنا ونملّ الحياة ونحن لا ننفكّ نقنع أنفسنا بالحفاظ على حبّ مات منذ زمن خوفا من الخسارة أو الندم وعواقب المغامرة. وهذا صوت العقل الذي ما يفتأ يضنّ عليك بالمتع الحقيقية وينأى بك عن ميدان الصدق.

.كم أخافك حين تتكلّمين على هذا النحو.

أشعل سيجارة أخرى وأخذ نفسا عميقا وأردف:

.يحزّ في نفسي أن أطفئ ألمي وألمك بسيجارة. لكن ماذا يفعل آدم أمام ملل حواء وإصرارها على التغيير.. الوهم يسري في دم النساء..

اقترب منها فجأة وهمس في أذنها كمن يخاف سماع صوته المرتعش:

- ألم تحبّيني يوما ؟

- أحبّك.

- إذن ما الخطب ؟ لم هذا الفتور ؟

استجمعت أنفاسها وقالت:

. أحبّك ذكرى ، رجلا عابرا ، لا زوجا راسخا يلازمني ليلا نهارا.. أحبّ المسافات هذا كلّ ما في الأمر.

سألها في نبرة ساخرة:

- مسافات محدودة أم مطلقة ؟

- لا أعلم. لكن ما أعلمه هو أنّ مبدأ اللذة انتفى بين جسدينا وما عدت ألفي لغة تواصل بينهما..

زمّ شفتيه في كبرياء مجروح وقال:

- لم بحثت عن هذا الماضي الذي فررت منه يوما لأسباب مماثلة ؟

- لأكتشف حقيقة الحبّ هل هو الوصال أم هو الشوق ، هل هو مجسّد في الشخص بشحمه ولحمه أم في ظلّ ذكراه المرتسمة في النفس ؟

ما خطر في بالها أن تبوح له بهذا لكنها باتت ترفض مداراة الحقائق مهما كانت العواقب حفاظا على مبدإ الصدق.

عقد ذراعيه على صدره وقال في تهكّم لا يخلو من ألم:

.واكتشفت الحقيقة أيتها العالمة ؟

صمتت وفي صمتها إدانة لنفسها. وما لبث أن أضاف في مرارة:

.مسكينة أنت.. وهمك فظيع سيلفظك بعيدا في أرض الضياع وربما الندم.. لكن تأكدي أنك لن تجدي السكينة.. ولا الحبّ.

وخرج صافعا الباب وراءه.. ولم يعد.

**********

كانت صفاء جالسة في قاعة الأساتذة في ساعة فراغ بين حصّتين ترتشف قهوة لا تحمل طعم القهوة.. لكنها لم تهتمّ

لأن العم الهادي رجل وديع طيّب لا يستحقّ طعنا في قدرته على صنع القهوة.. وطفقت تتلهّى بزميلين يقبعان في ركن القاعة وقد انغمسا في نقاش حادّ لا يبدو أنه سينتهي على خير وارتفع صوت زميلها عبد العزيز يقول كاظما غيظه:

.أستغرب من مثلك أن يتحدّث بهذا المنطق السقيم ، منطق غربي لا صلة له بالعروبة الحقيقية.. منطق سلبي لا روح فيه.. ظلام.. أيّ عيش هذا نرضاه ونحن أتباع خانعون بل أسرى مرتهنون لأمريكا؟ يكبّلنا عجزنا وخوفنا على بعض المصالح ومن أجلها نرفس جثمان الحق ونزهق روح الكرامة..

قاطعه زميله في استخفاف ظاهر:

.بصراحة.. كفّ عن المغالطة.. ماذا بإمكان الأنظمة أن تفعل ، ماذا تتوقعون منها؟ أن تنفعل مثل شعوبها دون تروّ ولا احتكام للعقل وترمي بكيانها وكيان شعبها إلى التهلكة؟ لكلّ نظام مصالحه الاقتصادية والسياسية تحتم عليه موقفا دون آخر.. أنظمتنا حكيمة أم أن الحكمة باتت تخاذلا وجبنا؟

ودخلت زميلتها مدرّسة العربية السيدة فضيلة تجرّ رجليها جرّا وكانت محمّلة كعادتها بعلبة الطباشير والطلّاسة وبعض الكتب القديمة الله يعلم لمَ تحتضنها ولم تسلم بسببها من تفكّه بعض الزملاء لملازمتها إياها في الذهاب والإياب ، وكانت

تقبل مزاحهم وتردّ عليهم: "إنها تؤنسني" وما أن وقع بصرها عليها حتى بادرتها بروحها المرحة الحفية:

- مضى دهر لم نرك.. أنت بخير ؟

- كنت مريضة شيئا ما.

ولم يخف عنها ما يحصل بين الزميلين فاقتربت منها متضاحكة وهمست:

.هذا دأبهما إذا تحادثا تخاصما.

وقف عبد العزيز وقبل أن يهمّ بالخروج واصل وهو ينظر إلى زميله شزرا:

- نحن فاهمون لكل شيء لكن ما يحدث هو أننا نتجاهل عبوديتنا ونحاول أن نتعايش مع حياة الذل ونقنع أنفسنا بأوهام لا يجب أن نقتنع بها بيد أنها تخفّف عنّا.. نحن كمن يلبس في عنقه ويديه ورجليه أصفادا حديدية ولمّا سألوه ما هذا قال محرّكا أصفاده في حركات بهلوانية سعيدة: إنها قلادتي وأساوري وخلاخلي.. للاحتلال مبدأ شيطاني " كن عبدي أصنع منك سيّدا ".

وانسحب من القاعة مغمغما لاعنا العرب وأجداد العرب.. وهزّت السيدة فضيلة رأسها زامّة شفتيها تأييدا لما قال ثمّ قضتا نصف الساعة تقريبا تتجاذبان أطراف الحديث مرّة عن العمل وسوء الإدارة وانحطاط مستوى التلاميذ وسلوكهم ومرّة عن

إحصاء الزميلات الحوامل في المعهد وتوقع حرب عالمية ثالثة في ضوء العلاقات الدولية المتوترة في العالم..
ولمّا استأنست لها السيدة فضيلة في الحديث انهالت عليها بوابل من الأسئلة الفضولية من قبيل من يقطن معك؟ كيف تعيشين وحدك؟ ألم يخطبك أحد؟ متى تزورين العائلة؟ وغالبا ما يمتعض وجه زميلتها بين الحين والآخر لأنها لا تصيب منها سوى إجابة مقتضبة أو ابتسامة حرج.
كلّما فكّرت صفاء في أمر وحدتها يقفز لها خاطر خطير.. يجب أن تواصل البحث عن السعادة ولن تستسلم بعد الآن لحياة الجمود والكآبة.. صارت على بيّنة من رغباتها هي تعلم أنها لن تتزوج وفي الآن ذاته لن تحرم جسدها من الحياة حياة اللذّة..
كانت تفكّر في هذا حينما دخلت زميلة شابة جذّابة المظهر تراها للمرة الأولى واتجهت نحوهما والابتسامة لا تفارق محيّاها.
ألقت عليهما تحية الصباح فبادرتها السيدة فضيلة بعد أن لمزت صفاء لمزة لم تفهمها وقالت للقادمة:
- عمت صباحا يا نوال.. ما أخبارك؟ وجدت منزلا للكراء؟
أجابتها وقد استرعى انتباه صفاء أنّ وجهها ليس غريبا عنها فطفقت تتفرّس في ملامحها علّها تذكر أين تعرفها:

- لم أجد بعد ما يناسبني.. حاليا مازلت أقيم مع عائلة ابنة خالتي وأخشى أن يطول مقامي أكثر لأني بدأت أشعر بالحرج فعلا خاصة أنّ المنزل ضيق وعائلتها تبارك الله وفيرة العدد.
- الحقّ معك.. الله منذ أن أعلمتني بالأمر لم أفتأ أفكر فيك.. وللتوّ كنت سأطرح الموضوع على زميلتنا صفاء.
وفاجأتها السيدة فضيلة لمّا التفتت إليها واقترحت عليها ببرودة:
. زميلتنا تدرّس انقليزية التحقت بمعهدنا الأسبوع الفارط وكما كنت تسمعين الأخت في أزمة حقيقية تبحث عن مسكن عاجل.. ففكرت فيك هل يمكن أن تقاسمك منزلك ولو مؤقتا ؟
إنها في حرج لا تعلم كيف تخرج منه. ولمّا طال صمتها قالت نوال في لهجة متعثرة خجولة:
. لا.. لا أريد إزعاج الزميلة وإحراجها بهذا الطلب.. لا بأس.. سأتدبّر أمري.
لكنّ السيدة فضيلة تجاهلت خجل الزميلة وأردفت دون أن تخفي عزمها على إقناعها:
. ما رأيك فيما قلت؟ لاسيما أنك وحيدة والوحدة مضنية.. نوال شابة على خلق عالية وثقي بي لن تندمي على قبولك اقتراحي.

نظرت صفاء إلى وجه نوال البضّ المشعّ حياة و لم تقو على الرفض فأومأت برأسها موافقة.
كانت لا ترجو منها شكرا و لا امتنانا ، هي تعلم أن موافقتها محض أنانية منها ، ما في نيتها أن تصادقها أو تقاسمها العيش بقدر ما تحتاجها لخلق أجواء جديدة في المنزل تخرجها عن الروتين و لو مؤقتا وقد تكشف لها عن كهف آخر من كهوف النفس المكنونة.
هذه المخلوقة الجميلة استحالت في نظرها إلى ظرف مبهم يحتاج إلى إضافة وعلاقتها بها لن تتعدّى علاقة المضاف بالمضاف إليه..
مازال أمر شعورها بمعرفتها لهذه الفتاة يناغشها.. بعض الوجوه نراها لأول مرة لكننا نحسّ أننا نعرفها سابقا وكأنّنا رأيناها في عالم آخر سابق لعالمنا وكما لو كانت الذات الإنسانية في هذه الحياة لا تنهض إلا بدور التذكر ، تذكر العالم الذي كانت تسكنه قبل هبوطها في الجسم وتمرّغها في عالم الحسّ.. هي لا تميل إلى نظرية الفصل بين عالم النفس وعالم الجسد ولكنّ أمورا كثيرة تحدث في النفس ولا نلقى لها تبريرا منطقيا نركن إليه ونسكن.
والعجيب في الأمر أنّ صورة عمر لم تعد تطاردها بإلحاح كالسابق. بات طيفه فاترا بعيدا لا يعني لها شيئا كما لو خرج

من أسوار الزمان والمكان.. هي لم تعد تشعر أنها عرفته يوما ، جسدها لم يعد يذكره ونفسها لا تفهم ، لا تفهم.
التحقت الزميلة نوال بالمنزل مساء يوم السبت لمّا توقفت شاحنة متوسطة الحجم تحمل حاجياتها سريرا وخزانة وأواني وحقائب.. ساعدها السائق على إنزال أدباشها وعمّت المكان فوضى هي في حاجة إليها تنزعها من الكمد الذي ألمّ بها.. من السكون الفظيع الذي يمزقها كالسكاكين.
نظرت إلى وجهها المبتسم فلم يزدها ذلك إلا فضولا لمعرفة سبب ابتسامها الدائم.. وأدركت أنها تتوق إلى الانطلاق ، إلى الضحك بل أن تغرب في الضحك ولو سماجة. ما يضيرها أن تكون بشوشة الوجه دائمة الضحك مثل هذه الشابة.. هل للضحك علاقة بالسعادة؟ أبدا ، كم من بائس تعيس طحنه الدهر بأضراسه ولم يقلع وجهه عن الابتسام.. إنّه مجرّد طبع جميل مفيد بإمكان المرء أن يكتسبه لو تنحّى عن غطرسته وكبره ولن يتنحّى.
قالت نوال بصوت مهموس سعيد بعد أن ألقت بجسدها على أول كرسي:
. تعبت كثيرا.. لكنّي سعيدة وممتنة لأنك ساعدتني على حلّ أزمتي.

ابتسمت لها صفاء ابتسامة غامضة علّها ابتسامة حسد وهي تفكّر:"ما أسلس هذه الأزمات أمام أزمة نفسها المستغلقة عليها".

وارتبكت لمّا اقتحمتها زميلتها بسؤال غير متوقع:

.لم وجهك ملغز؟ بل نفسك مستعصية الفهم.. إلى حدّ أنّي لا أعرف هل ترغبين في وجودي معك أم أنّي أزعجك.

تضاحكت صفاء وتمتمت:

. لا.. أرجوك.. لو كنت مصدر إزعاج لما قبلت أن تقاسميني منزلي.

.على كلّ حال أرجو أن يسود الوفاق بيننا.

صمتت قليلا ثم واصلت ضاحكة:

.لا أعرف هل أنت بحاجة لتعرفي عنّي بعض الأشياء.. لكن أودّ أن أعلمك أنّي امرأة بسيطة أحبّ المرح والحديث مع الناس بتلقائية والصراحة في القول والفعل وكلّ ما من شأنه أن يجعل الحياة بهيجة بسيطة في نظري.

وتملّكتها روح الدعابة وقالت:

.ومن منّا لا يحبّ هذا يا عزيزتي؟

قالت نوال:

.بل من منّا يقدر على هذا؟

أجابتها صفاء وفي نبرتها شيء من التهكّم:

- أعتقد أنّ اللّهو أهون الأمور على الإنسان.
-أجل يسهل اللّهو إن تحوّل إلى طيش لكن يعسر إن أردناه للاحتماء به من الهمّ والتعاسة.. وقد علّمني التفكير أنه في مقدور المرء أن يسعى إلى حلّ معضلاته في الحياة بطريقة بسيطة وحكيمة وهي أن ننظر إلى الحياة في تفاؤل و أمل متواصل و إذا هي طوع يدك تنحلّ مشاكلها أمامك بسهولة لم تكن تتوقعها.
ورانت عليهما لحظة صمت تذكّرت فيها قولا ماضيا لعمر:"انظري إلى الحياة في ألم وإذا هي طوع يدك".. أيّهما أصدق من الآخر؟ أن ننظر إلى الحياة في ألم أو في أمل.. الحروف واحدة بيد أنّ بين الألم والأمل موقع حرف.. والناس معادن كلّ اختار لنفسه موقعا يناسبه إلاّ أنها لمّا تجد لنفسها موقعا.
وشعرت بنفسها تسألها في شرود:
.أ لم تملّي الحكمة يوما ؟
ضحكت الزميلة إلى حدّ القهقهة وهي تقول:
. نحن يا عزيزتي نتوق إلى الحكمة ونحاول العيش في ظلّها فأنّى لنا أن نملّ من شيء نتوق إليه ؟
ونهضت من مكانها ومخلّفات الضحك مازالت مرتسمة على وجهها وأردفت:

- دعينا من هذا التفكير السفسطائي الذي يذهب عن النفس اطمئنانها ويرمي بها في حلقة مفرغة.. وقولي أ لن تدلّيني على غرفتي ؟

- طبعا.. من هنا تفضّلي.

نامت تلك الليلة متقلّبة على فراشها تراود النوم فيستعصي عليها.. كانت تشعر بفراغ في رأسها وزوبعة جوع في أمعائها. غادرت مرقدها إلى المطبخ وقد طلع الفجر تبحث عن شيء تخمد به جوعها. لا تعرف ما دهاها في هذه الساعة لا سيما أنها أثقلت في الأكل ليلة البارحة معيّة رفيقتها التي ما انفكّت تحدّثها بالنوادر وتحكي لها عن نفسها بأسلوب طريف لا تنكر أنّه أمتعها.

شابة طريفة جدّا جديرة بالاحترام تُكبر فيها قدرتها على تبسيط الأمور مهما كانت معقّدة. كم تمنّت أن تكون مثلها.. هل كان نظام الكون سيختلّ لو نشأت على مثل طباعها وآمنت بمثل قناعاتها. لمَ نفسها هي تعيش هذه الفوضى من المشاعر وهذا الضياع المقيت الذي يحرمها الفهم ويحملها في متاهات لا ترى فيها خلاصا.

و شرعت تعدّ لنفسها قهوة حليب وضعتها على نار هادئة وسارت إلى النافذة تفتحها لتطلّ على أحوال الجوّ فلفحتها نفخة من النسيم البارد و رأت السماء مكفهرّة و الريح تعصف

مدمدمة في الشارع و بين الأغصان لا تبشّر بخير .فأوصدت النافذة و أسرعت إلى الحليب الذي علا صوت فورانه على النار و تضوّعت رائحته .سكبت لنفسها فنجانا و تركته يبرد و هرعت إلى مكتبها تجلب منه أوراقا لتنهمك في العمل و إعداد فروض الأسبوع المغلق .و طفقت الساعات تمرّ سراعا كانت تكتب جملة ثم تستريح لترتشف قليلا من فنجانها و تأكل قطعة أو قطعتين من المرطبات و أحيانا تمضي إلى غرفتها لتستلقي على سريرها تفكّر في ما ستفعله مساء هذا اليوم ،يوم الأحد .ثم لا تلبث أن تعود إلى طاولة المطبخ تستأنف عملها ، و هكذا إلى أن دقّت الساعة العاشرة صباحا ونوال لمّا تنهض.

هذه الزميلة عجيبة التأثير بحضورها انقشعت روح الكآبة عن هذا البيت ، روح طالما عشّشت في أركانه وعبثت بنفسها.

تنظر إلى الجدران والستائر والأثاث فتتراءى لها هذه الأشياء المألوفة لديها مختلفة عن صباح الأمس كمن لمسها بعصا سحرية حوّلتها من كيان فاتر باهت إلى آخر حيّ مشرق.. يُخيّل إليها أنّ هذه الأشياء الجامدة تنفعل وتتأثر بنفس مستعملها ولها قدرة بديعة على التعبير "اللاسلكي " إذ تعكس لصاحبها حقيقته دون تمويه. فكم من بيت تدخله وتنظر إلى أشيائه فتدرك منها على بساطتها أو بذخها هل صاحب البيت سعيد أم تعيس ، بسيط أم معقد ، عالم أم جاهل ، مبال أم لا

مبال ، متمرّد أم قانع.. فما أغرب هذه المناسبة بين الجماد والإنسان وكأنهما توأمان على ما بينهما من مظاهر التنافر والتضادّ.

واهتزّت على كرسيّها فزعا لمّا قصفت رعدة خرقت الصمت المخيّم على المنزل تنبئ بهطول أمطار غزيرة.

تأففت لهذا النبإ لأنها على ما يبدو لن تقدر على الخروج في مثل هذا اليوم الكئيب. ولم يمض كثير حتّى انقشع السكون كلّيا بصوت نوال يحيّيها وهي تتقدّم نحوها وتسألها بابتسامة عريضة:

- نمت جيّدا ؟

- أبدا.. أرقٌ أقضّ مضجعي.

- لماذا ؟

وأمام صمتها أضافت في شيء من التودّد متفرّسة في وجهها:

. تعرفين.. رغم أنّي مازلت لا أعرفك جيّدا إلاّ أنّي ألاحظ حزنا غريبا في عينيك.. شيئا ما يقلقك ويؤلمك وما من ألم دون سبب.

وبعد صمت واصلت:

- إن شئت بإمكاني أن أكون صديقتك: صدرا يحوي معك آلامك ويخفّفها عنك.. تكلّمي عن نفسك واخلعي عنها هذا الجمود.

- لغتنا لا يسعها التعبير عن نفسي.
قالت متضاحكة:
.إذن لنتحدّث بلغة أخرى غيرها.. ما رأيك في الانقليزية ؟
ابتسمت صفاء في جفاء وقالت بصدق:
-لا أجيد الكلام عن نفس لا أفهمها.
- يا إلهي.. دخلنا الآن في المسائل المعقدة.. يا عزيزتي لماذا نضني النفس بفهم النفس ؟
- لنفهم الحياة.
- ومن طلب منّا هذا العناء ؟ عيشي حياتك في أبسط وجوهها دون حاجة إلى فهم الحياة لأن الحياة بطبعها غامضة والإنسان غامض وسرّ الوجود غامض ومحرّكه غامض فأنّى لنا أن نفهم ما يتعدّى حدودنا ؟ صدّقيني السعادة في ألّا نفهم وأن نعيش دون أن نسائل أنفسنا أو قدرنا لأنك لن تختاري قدرك بل قدرك هو الذي يختارك.
سألتها صفاء ولم تخف اندهاشها:
- وكيف تفعلين هذا ؟
- إنّي مؤمنة فقط ، مؤمنة أنّي ملك للّه يتصرّف فيه كما يشاء وما عليّ إلاّ أن أرضى بما قسمه لي الله بروح رياضية لا أفقد معها لذّة الحياة. وقد تستبدّ بي أحيانا أسئلة مربكة عن الله

والوجود والحياة أعرف معها أنّي سأعاني وأقلق فأهرع لأصلّي أطلب هدى الله ورحمته بنفسي الضعيفة والله رحيم غفور.
- إنه إيمان العجائز.
- وهو المطلوب كي لا نشقى في الدنيا
- وما دلالة العقاب إذن يوم الحساب إن كنّا محكومين بأقدارنا تسيّرنا وتعبث بنا كما تشاء ؟
- لا تسألي لأن السؤال من فعل الشيطان الذي يريد شقاءنا على هذه الأرض.. الإيمان تسليم جميل يُطمئن القلوب لكن إن ألححت عليه بالسؤال انتفى فيك وإن انتفى يكون الضياع. لذلك جنّبي نفسك السؤال تفهمين الحياة دون عناء تمتمت صفاء في شرود كمن يخاطب نفسه:
- أيمكن أن يموت السؤال يوما ؟
ودخلت نوال حجرتها في خفة تعكس سعادة جسمها وجاءت تحمل كتابا صغيرا في يدها ثم جلست على مقعد قريب وقالت:
.أ لا تصلّين ؟
أجابتها صفاء في استخفاف:
.لم أجرّب.
ابتسمت الزميلة بوجه ودود وقالت وهي تمدّ إليها الكتاب:

.اقرئي هذا وستعرفين السبيل التي تسلكين. أنت يا صفاء في حاجة إلى الصفاء.

وبأصابع فاترة تصفحت صفاء الكتاب مردّدة عنوانه بصوت مسموع ثم قرأت قليلا مّما كُتِب من الخلف على الغلاف الخارجي:" جاء الغرب بمذاهبه وايديولوجياته يزعم تحرير الأمة وإنارتها وإخراجها من التخلف فلم يزدها إلا اغترابا. وإذا بنا أمام جيل الضياع جيل المتاهة والانسحاق."

لكنها رمت بالكتاب جانبا وعلّقت:

.لا أميل إلى هذا النوع من الكتب لأن التحليل فيها يكون في أغلب الأحيان مبالغا فيه والحلول خيالية التحقيق وربما مستحيلة. فلا نزداد إلا نقمة ويأسا.

هزت نوال كتفيها قائلة:

.على كلّ حال اتركيه عندك علّك تغيّرين رأيك وتتوقين إلى اليقين.. هه.. هل أفطرت أم أعدّ لك معي فطورا ؟

.شكرا.. كان الجوع من الأسباب التي أيقظتني مبكرا.

حدجتها نوال بنظرة ثاقبة وتمتمت:

.أليس من سبب آخر ؟

قالت صفاء بعد أن فهمت مغزى سؤالها:

.تقصدين الحبّ ؟

ضحكت نوال عاليا وقالت:

.ومن غيره يسهّد المرأة ويؤلمها ؟
.أ عرفت الحبّ يوما ؟
. أنا ؟ عرفته لمّا كنت على مقعد الدراسة في المعهد. وككلّ العلاقات باءت بالفشل وآلت إلى الفراق حين رسب هو وارتقيت أنا بدعوى أنّ الرجل لا يرضى بحبّ فتاة تفوقه في المستوى الدّراسي.. ومن ذاك الوقت وأنا أدعو من الله أن يصرف عنّي داء اسمه الحبّ لأنه يجعل من الإنسان عبدا أنانيا غيورا عصبيا معذّبا وميّالا إلى الشكّ. ومن يبغي السلام وراحة البال فلا يبحث عنه.

وبعد برهة من الصمت سألتها صفاء دون تردّد:

.وكيف يعيش جسدك في غياب الحبّ ؟

أجابتها نوال في استغراب:

.جسدي ؟ أظنّ أنّ الجسد يحتاج زوجا لا حبّا.

أومأت صفاء برأسها وهي تبتسم:

.طبعا.

ولفت انتباههما صوت اهتزاز النوافذ بفعل الريح القوية وقد اكفهرّت السماء واستفحل الأمر وحبست الأصوات وجسا وتصدّع الحديث أملا في الهدوء. ومرّ النهار بطيئا والأنواء مستمرّة لا تنوي انقشاعا.

وفي المساء استلقت صفاء على سريرها تنصت إلى صوت السيل الغزير يحدّث الأرض عن سرّ هبوطه ليجامعها ويجعلها حبلى بآمال البشر. ولهبوطه عليها مهابة وحرمة لا يحلّ انتهاكها كتلك الحرمة المؤكدة بين الزوج وزوجته. حرمة يجب احترامها وهيبتها بالمكوث في منازلنا ننتظر خروج السيل من خدر الأرض ونبارك جماعهما. لكن سرعان ما ملأتها ثقة لا عهد لها بها وعدتها بتحقيق أيّ شيء تريد. لا شيء يمنعها. لا رعد ولا مطر ولا هيبة ولا زمن ولا قدر ولا هي. وقد يتغيّر كلّ شيء في لحظة إذا صهل الصمت وخلخل قضبانه وانطلق بعيدا عن عجزه. واللحظة السعيدة الخاطفة هي التي تتحقق في مكان ما غير متوقع وفي زمن غير مألوف.

وتنفّست تنفّسا عميقا كأنما تستردّ شيئا من قوتها وشعرت بهاتف آت من بعيد.. من أعماق نفسها يقول:"مرحى بالجنون ، بالحياة الخالية من الخوف وكلّ أشكال القيود."

انتفضت من مكانها وقد تيقّظ فيها داع جبّار لا تقوى على ردّه وأدركت أنها تريد الخروج من عالمها هذا. ملّته إلى حدّ النفور ولا شيء يثنيها عن تغييره.

تقدّمت بخطى ثابتة من المرآة حملقت في وجهها وتساءلت "وجه من هذا؟ وجهي أنا؟ ومن أنا؟ سؤال أخرس ، أبكم بل مجنون. تحسّست ملامحها في شيء من العصبية مخاطبة

نفسها:"ما أغرب هذه الملامح عن نفسي. شدما تكذب الوجوه.. وجه هادئ لطيف يقطر رزانة وحياء بيد أنّه قناع لنفس طائشة تهيج جنونا." ولطمت وجهها لطمة عنيفة ثم لم تحرّك ساكنا. تنتظر. تنتظر أن يطفو شعور ما على وجهها. لكن ما حصل هو أنها امتلأت حرارة سرعان ما تحولت إلى شعور بالنشوة وفوجئت لمّا ابتسمت لها عيناها في المرآة تدعوانها إلى مزيد من اللطم وانهالت على وجهها قرصا وصفعا ولكما ثم رمت بجسدها على الفراش وأغربت في الضحك. وبعد أن هدأت زوبعة الضحك أحسّت بانتعاشة غريبة ذكرتها بشعور المارد الذي سجن في قنينة طيلة قرون ثم خرج فجأة إلى الهواء الطلق ولا تسل عن حجم سعادته آنذاك رغم أنه بقي عبدا لمخلّصه. وهي لا تختلف عن هذا المارد إلا أنها حرّرت نفسها من نفسها وبقيت عبدة لوساوسها وجنونها.

وقالت بصوت مسموع:

ما ألذّ أن تفعل شيئا كان العقل ينهاك عنه.. ما أمتع الجنون يتحوّل معه الألم إلى نشوة والمستحيل إلى ممكن والزيف إلى حقيقة.

ثم جحظت عيناها فجأة وقفزت إلى المرآة من جديد تطلع على نتيجة ما صنعت. و ندّت عنها آهة حين رأت ما طرأ على وجهها من تورّم و قد انتشرت عليه بقع زرقاء وحمراء.

وتمتمت وهي تتلمّس تلك البقع:
- اللعنة.
تناولت علبة المساحيق وطفقت تصلح ما أفسدته يداها وتخفي تلك الآثار قدر الإمكان وترسم وجها آخر أقرب إلى نفسها من الأول.
ووضعت اللمسات الأخيرة من الماكياج وتأملت رأسها يمنة ويسرة متمتمة:
.رائع
وارتدت لباسا صيفيّا مثيرا أهداه إيّاها خالها المقيم في فرنسا وقلّما كانت ترتديه لخلاعته وشفافيّته.
وسمعت طرقا خفيفا خيّل إليها أنّه آت من بعيد لكن سرعان ما تذكرت أنّ هناك من يقاسمها المنزل. ودخلت نوال قبل أن تسمع تصريحا بالدخول وما إن ألقت عليها نظرها حتى قالت مبتسمة:
-أوه ، ما هذا ؟ من يراك لا يتخيّلك أنت.
قالت في نبرة جادّة:
- فعلا لا أريد أن أكون أنا.
ونظرت إليها نوال بعينين متسائلتين لاح منهما الاستغراب والتردّد في طرح السؤال. لكن صفاء تقدّمت منها باسمة

متمايلة في مشيتها على غير عادتها وخاطبتها في شيء من التحدّي:

- أجل. إنّي خارجة.

- في مثل هذا اليوم ؟

- لا شيء يمنعني عمّا أريد.

- وفي هذا الزيّ ؟

جاوبتها متضاحكة:

.وما الضير فيه ؟

ولم تخف نوال ذهولها:

.البرد شديد والمطر يهطل وهذا الثوب لا يناسب طقسا مماثلا.

وبعد برهة صمت قالت صفاء:

- من الذي يحدّد ما يناسبنا ولا يناسبنا ؟

- العقل والمجتمع.

- العقل عدوّ لذواتنا ما ينفكّ يميتها ويُنيخها حتى يجعلها طيّعة. ولا سطوة للعقل وحليفه المجتمع على نفسي لأني كفرت بهما و لحدتهما منذ زمن لطالما زيّنا لي نفسا لا أشعر بها .هما الزيف في هذه الحياة.

- سينبذك الآخرون.

-غير مهمّ.

-وما المهمّ إذن ؟

قالت وهي تحمل معطفها ومطريتها وتهمّ بالخروج:
-أن أعرف نفسي.. بعيدا عن أيّ ضغط.
واصلت في ثقة خطيرة:
-نفسي الحقيقية التي تودّ العيش وتروم السعادة الحقيقية التي يردعها عنها العقل والمجتمع. تريد الانطلاق من مكمنها والتعبير عن نفسها بحرية صادقة.
- ستشقين بهذه النفس.
ابتسمت ابتسامة غامضة قائلة:
-لا أظنّك تفهمين.
وخرجت تستقبل لفح الريح الباردة صافعة الباب وراءها وفي صفعها للباب صفع لكلّ صوت يسعى إلى إقناعها بالعودة إلى الموت.}

## في الفجر..

تنهّدت بعد أن أغلقت الدفتر وضمته إلى صدرها مفكّرة في جنون هذه البطلة التي تكتب عنها بكلّ جوارحها والتي تشبهها بقدر ما تختلف عنها. تشبهها في نفورها من العقل وتختلف عنها في جرأتها عليه. هي أبدا ما تجرّأت على نبذ ما يمليه عليها عقلها.. طالما كبتت رغباتها خوفا من الوقوع في الخطيئة وخوفا من الضمير. لكن ما حصل أن اغترب جسدها عن نفسها وعاشت غربة فظيعة بين نفس رادعة وجسم جامح راغب.

أحبتّ كلّ رجل تراه حبّا رهيبا ، ذلك الحبّ الذي يدغدغ المشاعر ويفيق الشهوات ويغري بإشباع الغرائز واقتحام دائرة المحرّم والمحظور. بدأت محنتها لمّا أدركت ما يعتري جسدها من شهوة ورغبة حين ترى أيّ رجل وسيم أو تخاطبه وحاولت مرارا وتكرارا طرد هذه الوساوس عن نفسها بيد أنّ الأمر استبدّ بها وتمكّن منها إلى أن تحوّل الحال إلى صراع بين قوتين متعادلتين ، قوة كابتة ناهية وأخرى متكالبة مندفعة.. صراع مرير وقعت إثره فريسة اضطرابات نفسية في هذه المصحة مدّة ستة أشهر ولم تبرأ بعد. و كيف تبرأ و هي مازالت تستبطن في لا شعورها نظام المحرّمات الاجتماعية وأنّى لها أن تلبي

طاقتها الغريزية اللاواعية في مجتمع أخلاقي يطالبها بالعدول عن دوافعها الجنسية.
عادت بفكرها إلى ما تكتب وفتحت الدفتر مجدّدا تتصفح ما كتبت متمتمة:"ما أسهل أن نعبّر عن ألمنا وما أمتع أن ننفجر دون الخوف من الخطإ.. هذه الرواية التي أكتب ليست سوى عملية إعلاء وتصعيد من غرائزي. هو حلّ وهمي خيالي مؤقت لهذا الصراع الحادّ.. لهذا رميت بالبطلة في دائرة اللاوعي حتى يتسنّى لها إشباع غرائزها وفق مبدإ اللذّة لتحقيق السعادة."
تفكّرت قليلا وواصلت: "كيف يمكن أن تكون النهاية ؟
أَ أَجعلها سعيدة في نهاية المطاف أم أنبذها أنا الأخرى كما نبذها الآخرون ؟ ترى أين تكون السعادة ، فيما هو طبيعي فينا أم فيما هو ثقافي مكتسب ؟ وأيهما أسعد أن يكون الإنسان كائنا حيوانيّا أو كائنا ثقافيا ؟"
لكنّها مازلت لا تعرف اليقين. هي تخلط بين الوعي واللّاوعي وتتألّم والألم علامة المرض ، والمرض حليف الموت ، ولعلّ الموت هو اليقين.
وقررت أن تثق في القلم وتترك له مهمّة التفكير والكتابة وتفسح المجال لبطلتها الورقية أن تدلّها إلى الحقيقة. ففتحت الدفتر وتأملت الكلمات الأخيرة فانتابها خوف مفاجئ ، ذلك الخوف الذي يراودنا أمام طريق مظلم مجهول النهاية نتبع فيه

بصيص نور ما ينفكّ يتباعد كلّما اقتربنا منه. وإذا التفتنا إلى الوراء نفكّر في الرجوع نسمع قهقهات أشبه بنواح ويتراءى لنا الظلام كتلة موحشة تصهل شرّا ولا تتوانى عن افتراس من يقتحمها. لكنها عزمت على مواصلة ما بدأت وسجّلت:

{وخيّل إليها أنّ السماء تزمجر غضبا لمّا وطأت الرصيف تسير حثيثا ممسكة بمطريتها تاركة الريح تتلاعب بأطراف معطفها المفتوح تكاد تقتلعه عن جسمها وقد سكنتها نشوة غريبة لمّا اقتحمت الريح جسدها واحتضنته بعنف لذيذ وانصهرت مع نفسها. لم تكن تعلم أنّ الريح مثيرة إلى هذا الحدّ.. إن تركتها تعصف داخلك بقلب مطمئن أعطتك من سحرها وأفهمتك سرّ الوجود. وإن أمسك المرء نفسه عنها وازداد تمسّكا بمعطفه وسدّ كلّ الثغرات والمنافذ في جسمه خوفا من اقتحامها لباطنه ازدادت هي عنفا وعسفا واشتدّت تحدّيا ونقمة على بني البشر.

ولم تزدها الريح إلا تحدّيا للطبيعة الثائرة وإغراء بالمغامرة المرتقبة التي تقودها إليها غرائزها إلى حيث لا تدري.

كان الشارع شبه خال إلا من بعض عربات التاكسي المارة باحثة عن صيد في مثل هذا اليوم الغائم. ولم يكن ليخفى عنها أمر هذا السائق الذي يتبعها منذ برهة ويسير وراءها

بسيارته بتؤدة متعمّدة. وحاول التحرّش بها بالضغط على بوق سيارته ليلفت انتباهها.
وتوقّفت بغتة وسارت إلى الوراء متجهة نحوه بخطى مقصودة. توقف بدوره وبحركة سريعة فتح لها الباب الأمامي وعيناه لم تتنحّيا عنها ، تتسلّقان جسمها الذي يلوح له و قد شفّ و رقّ تحت ثوبها الخفيف كلّما حملت الريح أطراف معطفها وكشفت ما يستتر تحته.
عيناه.. عيناه خضراوان يشبهان الزبرجد.. عيناه تنفثان شهوة وحياة. وتأكدت للحظة أنّ السعادة هي أن ترى نفسك في عيون الآخرين مطلوبة مشتهاة دون مطالبتك بحقّ الإعجاب..
وارتمت على الكرسي جانبه بعد أن أغلقت مطريتها وقالت له ضاحكة بعد أن انطلق بسيارته:
.يوم جميل.
ردّ بصوت هادئ واضح قد جرّسه الدّهر وحنّكه:
.أنت أجمل ما يوجد في هذا اليوم.
وغمزتها الشهوة فقرعت في داخلها أوتارا غريزية تردّد مرحى بالحياة. فدنت منه وقالت بصوت خفيض:
.هيّا اعترف.. أعجبك ؟
رفع حاجبيه استغرابا منها ثم تضاحك قائلا:
.نعم.. أنت جميلة.

صمت قليلا ثم سألها:
.إلى أين تذهبين ؟
تمتمت دون أن تنظر إليه:
.إلى أيّ مكان..
تظاهر بعدم السماع قائلا:
-عفوا ؟
رمقته بنظرة شحنتها جرأة وإثارة وقالت:
.أريد الذهاب إلى مكان صاخب يعجّ بالحياة..
تفكّرت قليلا ثم أردفت:
.احملني إلى نزل عقبة.
وأمام صمته سألته:
.أتقاوم فكرة أن أدعوك إلى العشاء معي ؟
ردّ دون أن ينظر إليها:
.ولم لا.. مع مثلك لا نرفض شيئا.
ولمحت خاتم زواج يطوّق بنصره فلم تتردّد في سؤاله:
- متزوج ؟
- نعم
- لك أطفال ؟
- طفلان.
- لماذا ؟

ضحك عاليا قائلا:
- لماذا ماذا ؟
- لمَ تقبل دعوة مثلي ؟
- مع أمثالك نشعر بالسعادة وتهفو نفوسنا إلى الحياة.
سعدت لهذه الإجابة وازدادت يقينا من أنها تسلك سبيل السعادة.. أن تنطلق مع الريح وأن تؤمن بـ"القوة المسيرة" وتتركها ترسم صورتك الحقيقية و خارج هذه الصورة أنت لا شيء.
دخلا النزل وهي تتأبط ذراع السائق وتنهّد فؤادها في ظفر وارتياح بل في تحدّ لذيذ.. المكان خمّارة محتشدة بالرجال مع ندرة من النساء ، عيونهم تقطر متعة ، أجسامهم تترنّح رغبة ، كلامهم يفيق الباطن الكامن ويحرّره من نعاسه ، يا إلهي ، تلوح لك الحياة هنا في أصدق وجوهها وأبهى حللها.
وسارت إلى الداخل وقد بانت نفسها التي قاومت وقاومت حتى انتصرت ونالت حظّها من الوجود ورسمت صورتها بكلّ جرأة وثقة غير معهودتين.. ما أغرب ما يحصل..
أ يعقل أن تجهل نفسها طوال عمرها إلى هذا الحدّ؟ والعجيب أنّ في هذا الوقت تشعر بعمق مريح أنّها هي ، هي بذاتها وأنها تواجه حقيقة نفسها التي غابت عنها في زنزانة العقل.. تواجه جسدها الراغب الذي حُلّت عقدة صراعه مع العقل والحقيقة

والحكمة والصواب ولم يعد هناك بين جسمها وهذه الأشياء تواصل.. إنه الصمت المطلق.

ومدّت نظرها إلى أقصى القاعة فتراءى لها الدخان سحبا مجمّعة فوق رؤوس الجالسين وخيّل إليها للحظة أنّ هذه الأدخنة ليست إلا غبار أوهام وهذه الرؤوس أشباحا وأطيافا لا تلبث أن تتحوّل إلى شياطين تقفز على الطاولات وتدقّ الدفوف دقّا وشرر الجحيم يتطاير من عيونها الحمر وألسنتها تطول فتطوّق أعناقها حتى تزرقّ وجوهها اختناقا ثم سرعان ما تعود ألسنتها إلى أماكنها فتعاود الدقّ. وأفاقت على صوت رفيقها يسألها وهو يقودها في رفق إلى طاولة صغيرة في الركن الأيسر:

.ما بك ؟ مريضة ؟

حملقت في وجهه وهدّأ من روعها بريق عينيه الخضراوين. لم تجاوبه وحملها خاطر آخر بعيدا عن هذه الأجواء وغابت عنها دون أن تشعر النشوة المزعومة والسعادة الوشيكة ما جعلها تبوح في سرّها:" أ أكون فعلا مريضة ؟ ما رأيته للحظة وهم أم حقيقة ؟ خيال أم جنون ؟ ترى أكون مريضة بالوهم ، بالجنون أم بالحقيقة ؟ يكاد رأسي ينفج ، آه..

ما عساي أفعل؟ لم لا أستطيع أن أسعد؟ لمَ هذا الخلط الفظيع في داخلي؟ كيف أتخلّص منه؟ صمتي يصهل استغاثة ، يصهل مرضا ولا سبيل إلى الراحة."
وعادت تحملق في رفيقها الذي لم يخْف عنها ملامح الضجر..
وتفكّرت أنها شعرت بالنشوة أوّل ما دخلت إلى هذا المكان..
شعرت بلذّة منتظرة من هذين العينين الزبرجديتين..
ولم يعد همّها البحث عن النشوة بقدر ما صار كيف تحمي ما تشعر به من نشوة من الأفول والخبوّ..
استطرد رفيقها بالسؤال:
-لم تصمتين فجأة بعد أن كنت للتوّ شعلة من الحيوية والجرأة؟
ضحكت عاليا حتى التفتت إليها الأعناق قائلة بصوت مرتفع:
.تفضّلني هكذا؟ هه تكلّم.
أجابها وقد نال منه الحرج:
.ليس إلى هذا الحدّ.
قهقهت مجدّدا وهي تقول:
- أنا لا أعترف بالحدود يا عزيزي.
- أنت غريبة.. غريبة إلى حدّ مثير.
غمزته بعينها مشيرة إلى جيبه:

. معك سيجارة؟ مدّها بسيجارة دون أن ينبس ببنت شفة. وضعتها بين شفتين منفرجتين قليلا ودنت منه فأشعلها لها برشاقة وعيونهما متراشقة وسحبت منها نفسا عميقا جعلها تسعل عاليا وتغرورق عيناها بالدموع. لكن سرعان ما تمالكت نفسها أغربت في الضحك ومن ثمة استطردت وهي تمسك بالسيجارة المشتعلة بين إبهامها وسبابتها وتنفض المكان بعينيها:

-تراني عاهرا حمقاء؟

سكت.

تواصل:

.لكنّي في عهري لا أشعر بجاذبية الأرض ولا بثقل الأحياء.. إني أخفّ من الملائكة وأصدق من الأطفال.

ابتسم.

وبقدوم النادل تململ على كرسيه في احتشام وطلب نبيذا لكليهما.

تواصل:

- ما أشهى أن نمارس المحرّم.. له سحر عجيب ، سحر الأحلام السعيدة. المحرّم يوقظ الرغبة ويجعلك شبقيّا نهما تستهلك المتع واللذات استهلاكا جشعا حتى تبقى دوما على أحسن حال وتحمي جسدك من كلّ أسباب المرض.. والغريب إذا

رفعت عن الشيء صفة المحرّم والممنوع ضاع سحره وخبا بريقه وبات كسائر الأشياء باهتا لا طعم له.. أجل السعادة هي الحلم إن صار بين أيدينا تحوّل إلى رغبة فاترة ، لأجل هذا ، لأجل هذا ، يجب أن تبقى رغباتنا في باب الإمكان دون ترقّب تحقيقها.. تصوّرني أصبح امرأتك ملك يديك أيبقى في عينيك هذا البريق الذي تنظر به إليّ ؟

قال:

. أنت تفرطين في التفكير والتأمل.. لنستمتع بالحياة لا يجب أن نسأل أيتها الجميلة وعلينا أن نعدم التفكير ونسعد فقط دون إثقال الكاهل بالبحث عن السعادة وماهيتها وغيرها من الأسئلة التي لا تزيدك إلا توترا.. السعادة بسيطة غير مستعصية فقط إذا لم نفكرّ فيها ولم نلحّ في طلبها.

سقاها كأسا من الخمرة وأردف:

- ما اسمك ؟

- العلم بالأسماء يبلّد اللقاء.. اتركنا رموز القدر في هذه الليلة المميّزة.

.طيّب ، اشربي نخب اللقاء.

شربته دفعة واحدة. فسقاها الثاني وسرعان ما سرى مفعول الخمرة في جسمها.. يا إلهي إنها النشوة ، المتعة اللامعقولة ، الحرية اللّامتناهية.. سحر الوجود. أيعقل أن تكون الكأس

حبلى بكلّ هذه الأشياء؟ أين كانت غائبة عنها؟ أليس جميلا أن تعثر على طلبتها في جرعة خمرة.؟
وعلا صوتها ترنّما مع الأنغام المنبعثة في هذه القاعة المكيّفة.. طالما شعرت أنّ للموسيقى في نفسها دورا لا يقلّ سحرا عن دور الخمرة. فلا تسل عمّا اعتمل في نفسها لمّا تفاعل السحران وامتزجا فطفقت ترقص برأسها ويديها وأحيانا توقّع الأنغام بأصابعها على طرف الطاولة.. وانصهرت مع الأجواء ورأت أنّ الجلوس لا يلائمها فخلعت عنها معطفها ووقفت تحرّك جسمها وتتلوّى كغصن غضّ وتنظر إلى الناظرين بدلال وغُناج سلب الألباب المخمورة وجعل العقول مخبولة فهبّت زمرة من الرجال تراقصها في تنافس وحشي كلّ يحاول الظفر بهذا الصيد الشهيّ والاستئثار به عن غيره. وفي غمرة نشوتها لم تنتبه إلى خروج رفيقها الذي نظر إليها مطوّلا ثم انصرف تاركا لها ورقة تحت كأسها.
وحين ارتمت على كرسيها متهالكة تعبا وضحكا انتبهت إلى وجود الورقة ففضّت المكتوب بأصابع حذرة كمن يتوقع شرّا مستطيرا وقرأت:
"إلى رفيقتي:

الحدود جميلة يا عزيزتي.. حتّى في العهر. أنت الوجه المؤلم للمرأة.. الشيطان تجسّد فيك وأخرجك من قائمة النساء ففقدت سحرك وخبا بريقك لأنك مريضة.. مريضة.

رفيقك سليم"

وتمتمت اسمه مرات عدّة بصوت مسموع وفمها تتراءى عليه ابتسامة ساخرة: سليم ، سليم ، ومن منّا في هذه الدنيا كان سليما؟ وتساءلت في نفسها: من هذا؟ وماذا يريد؟ تبّا للرجال ، يتظاهرون بإعدام التفكير وفي إبطالهم للتفكير هم يفكّرون. يحبّون الجنون السليم والمجون العاقل ، مرحى لهم يتقنون الجمع بين المتناقضات ويسعدون بالتأرجح بين الصواب والخطإ.. فليذهب إلى الجحيم.

سكبت كأسا أخرى وأطلقت لعينيها العنان لاقتناص جليس. وأشعرتها جلستها أنها مومس. وومض ذهنها فجأة فلاحت لها صورة صفاء المربية. ما أبعد هذا عن ذاك لكن ما أقرب صورتها الآن إلى نفسها. الفرق أنّها حاليا تتصرّف من تلقاء نفسها دون أقنعة ولا زيف. إنها بصدد اكتشاف نفسها الحقيقية منتشية بها مهما كان حالها.

لاحظت أنّ العيون ازدادت لمعانا بعد أن طال جلوسها وحيدة واتّقدت الوجوه فرحا لمّا صارت شبه أكيدة أنّ رفيقها قد غادر المكان. ولم تحجم نظراتها عنهم وطفقت تبحث عن

الذي تشتهيه. وجدته هناك ليس بعيدا عنها يجلس ورفيقَه يتنادمان. شابّ لا يعدو العشرين من العمر ، تكبره أجل لكنه يعجبها. كانا ينظران إليها ويتهامسان. ودون تردّد وقفت وتقدّمت نحوهما لا تلوي على شيء سوى الجلوس إلى جانب من اشتهته. سحبت كرسيا وجلست قبالته وأشارت إليه بسبابتها قائلة بلسان ثقيل بفعل الخمرة:

- تعجبني.. أنت..

كان وسيما يحمل وجها قمحيا جذّابا وعينين عسليّتين خطيرتين هزّتا فؤادها هزاّ عنيفا. ابتسم قائلا:

- مرحبا بك.. أنت نجمة المكان هذه الليلة.

- أوه.. لا تبالغ.

- جمالك مثير.. وعبثك شهيّ.. كنت أنظر إليك منذ قليل ترقصين.. أتعرفين بم شعرت؟ بالطرب تشوبه لذعة الحسد.. بودّي أن أفعل مثلك وأعبث كما يحلو لي.

قالت في نبرة جادّة:

- وما الذي يمنعك ؟

- علّه الحرج أو الخوف من الناس أو العقل.. لا أعرف بالضبط لكن أشعر أني في حاجة إلى رفقة مثلك حتى نشعر بحلاوة الحياة ونسعد بأنسها.

كلّما تكلّم ازدادت يقينا من حسن اختيارها لهذا الجليس. رقصا طويلا يحتضنها بين ذراعيه يحادثها بعينيه يأسرها بابتسامته. هو الرجل الذي تريد. سمعته يهمس في أذنها:

- نذهب ؟

- إلى أين ؟

-إلى منزلي.

-كما شئت.

انسحبا من المكان وركبا سيارته الفخمة. ولم تلبث أن سألته:

- من المقيمين في الخارج ؟

- نعم. أقيم في النمسا.

-النمسا ؟ لا أعرف عنها شيئا سوى أنّ أبي يقيم فيها منذ سنين طويلة.. ماذا تعمل هناك ؟

-أدرس الرسم.. تسكرني الريشة فأفعل بها ما يحلو لي.

ابتسمت وقالت:

-أوه.. جميل أن نرسم.. أن نكتب.. أن نرقص.. أن نعبّر..

سرعان ما وصلا إلى منزله. شقة صغيرة في الطابق الثاني مطلّة على البحر. نزلت من السيارة في خفة بالغة وقلبها يخزها كلّما تخيّلت ما سيحدث في الداخل. نظرت إلى الشارع العريض يغمره سكون الليل وقد انقشعت عنه الرياح وتوقف السيل

فبقيت على سطحه غدائر من الماء تلمع تحت نور المصباح.
أمسكها فجأة من يدها وقادها نحو المنزل.
تقدّمت في البهو المنفتح على قاعة للجلوس. نزعت معطفها وجلست تشاهد صورة لامرأة معلقة على الجدار في حين سمعته يقول:
-إنها أمّي.. تأكلين شيئا ؟
هزّت رأسها موافقة دون أن تبعد نظرها عن وجه المرأة المرسوم. فيها شبه عظيم من ابنها وعلى الأرجح هي أجنبية.
عاد يحمل طبقا فيه بعض اللحم المشوي وقليلا من "المايوناز" وبعض الفطر والزيتون. سألته:
- هذا إمضاؤك على الصورة ؟
- أجل.
-رسّام بارع.. أتعلم أنّي كنت أهوى الرسم مثلك.
سألها مبتسما في دفء مثير:
- يجتاحني شعور غريب أنّي أعرفك رغم أنّي لا أعرف اسمك ولم أرك سوى هذه الليلة.
قالت في سحر ودلال جعلاه يدنو منها ويحتضنها بشغف:
- أجل الشعور متبادل.. اسمي صفاء و أنت ؟
- مراد.
يواصل:

- تحبّين الفطر ؟
- قليلا.
وضع في فمها قطعة منه ثم لمس شفتيها برفق ولّد بينهما رغبة جامحة وتمتم في غمرة الأنس:
-يا إلهي.. من ساقك إليّ ؟
قالت في صوت يكاد يكون لهاثا:
-الجنون.. ألا تؤمن بلغة الأجساد؟ جسدي أثارك واختارك. أهناك أصدق منه؟ لم يجبها وجاشت بهما الشهوة فرمت بهما في غياهب المتعة.

**********

انبلج الفجر لمّا فتحت عينيها بتثاقل وأدركت أنّها في سرير لا تذكر عنه شيئا سوى لحظة حملها إليه. نظرت إلى جسده الممدّد جانبها وشعرت بنفور مباغت من هذا الجسد الذي ما انفكّت تشتهيه ليلة البارحة. ما الذي يحصل داخلها؟ أهو الندم؟ لكنها سدّت منافذ العقل فمن أين يأتيها مثل هذا الشعور؟ قفزت من السرير هربا من نفسها اللعينة وعلا

وجنتيها وهج حارّ تدفق داخلها. إنها الرغبة في البكاء. البكاء من نفس متعنّتة تتحسّس الشقاء والعناء دأبا وتقتات من دمارها لفرط عداوتها لنفسها. ما أشقى هذه النفس التي تحمل.
خرجت إلى قاعة الجلوس تنفث سيجارة وتمدّدت على الأريكة بعد أن أشعلت النور وراحت تتأمل صورة أمه بمزيد من الفضول. سماتها أجنبية.. كم تنفر من الأجنبيات رغم جمالهن. ودون أن تشعر حملتها ذكرياتها إلى طفولتها أيّام رحل أبوها عنها وعن أمّها ليتزوج واحدة مثل هذه وينجب منها ابنا ويستقرّ في النمسا.. مرّ وقت طويل لم تلق فيه والدها ، تركها طفلة لم تعدُ السابعة من عمرها.. عشرون عاما لم تسمع عنه خبرا.. كان في البداية يراسلها ثم انقطعت أخباره حين تزوجت أمّها من آخر وأنجبت لها أختا وأخا محبّين.. أحبّت زوج أمها رحمه الله كأب بديل لذلك الذي قذف بها إلى العراء وحيدة يتيمة فاقدة للعون مستباحة مفتوحة على كلّ الاغتصابات والتعدّيات.. هي لا تعلم حتّى إن كان حيّا أو ميتا..
تنهّدت بقوة فانقشعت من أمامها سحب الدخان المتجمّعة فوقها وانبرت تردّد بصوت مسموع:
-أبي.. أبي.. أبي.. أبي ، غريب كياني لا يستحضر صورته.. ماذا لو حاولت رسمه بالقلم كما كنت أفعل صغيرة.

ابتسمت لهذا الخاطر وهرعت في حركة طفولية إلى درج الطاولة تبحث عن قلم وورقة تخطّ عليها هذه الرغبة المفاجئة في رسم أبيها. وامتلأت نشوة لمّا وجدت جلّ أدوات الرسم مرصوفة في الدرج. وسرعان ما جثت على ركبتيها ووضعت الورقة على الأرض ثم انحنت بصدرها إلى الأمام وشرعت ترسم بأصابع ماهرة.. هذه جلستها المفضلة كلّما أرادت أن ترسم.. تذكر كلمات أبيها حين كان يحذّرها مبتسما: "لا تجلسي هكذا يا بنيّتي ستؤلمين ظهرك." هو.. هو علّمها الرسم وطالما استحسن رسومها وشجّعها على المواصلة. لكن أنّى لها أن تواصل بعد أن تخلّى عنها وجعل منها ريشة بلا حبر؟

لا تعلم كم مرّ من الوقت وهي ترسم لكنها انتفضت فزعا لمّا فاجأها صوت رفيقها:

.ماذا تفعلين؟

نظرت إليه بعينين تائهتين وللحظة تعسّر عليها أن تتذكر من هو وماذا تفعل هنا وأيّ رابط يجمعهما. شعرت بدوار قبل أن تستجمع قواها وتمسك بتلابيب الواقع وتنتشل نفسها من دوامة الماضي.

أجابت متلعثمة:

-أرسم.

تقدّم منها في رفق وجلس على الأرض جانبها قائلا في مرح:

.كم أخشى الرسم في الصباح ، يشعرني بعجز بغيض..
رآها متجهّمة الوجه تهمّ بطيّ الصورة فاستطرد متضاحكا:
. ما خطبك؟ يزعجك الصبح عزيزتي؟ اطمئنّي سيأتي الليل قريبا وسنلتقي بالنفس التي نحبّ..
وأمام صمتها أخذ الصورة من بين يديها وراح يتأمّلها في جدّية.
يواصل:
.جميل جدّا... لكن من هو؟
أجابت في نفور:
.رجل.
قهقه عاليا قائلا:
.جنسه واضح.. أسأل كيف عرفته ، هل هو أحد زبائنك؟
حدجته بنظرة ملؤها البغض وهزّت رأسها تأييدا:
.أجل.. زبون حقير ككلّ الرجال.
أمسك معصمها بعنف وعلت وجهه موجة غضب وقال:
.وأخال أنّني منهم؟
قالت محاولة أن تفتكّ معصمها من قبضته:
-اتركني ، أنت تؤلمني.. ألسنا منحدرين من سلالة الليل والليل حقير يستمدّ عظمته من حقارة أمثالنا؟
تركها قائلا في صوت ساخر:

. اغربي عن وجهي.. ما أشدّ غبائي ، أسأل عاهرا كيف تلتقي رجالها ؟

وهبّت واقفة وقد ملأها سرور غريب:

-لا يحقّ هذا السؤال إلاّ لرجل غيور على امرأة يحبّها.

قال في استخفاف:

. قد نحبّ أمثالك لكن لا نغار عليهنّ.. لم يكن الأمر سوى فضول عابر.

زمّت شفتيها وتمتمت:

.أعرف.. لكن لتعلم أنّي لست عاهرا عادية.

قطّب جبينه وسألها في سخرية:

- وماذا تكونين إذن ؟

- كاتبة جسد.

رفع حاجبيه وضحك في استغراب:

- ماذا ؟ ؟

- أنا امرأة تبحث عن السعادة فتركت جسدها يكتب نصّا مقروءً من الميولات و الأهواء والانطباعات و دمّرت الفواصل المصطنعة بين العقل والجسد بين الداخل والخارج و حذفت هذه الواو بين العالمين؟ أين العهر في هذا؟لماذا تُفجّرون قراءة ما يكتبه الجسد..؟ ما ذنب جسدي إن اشتهى جسدا

آخر؟ وكيف لنا أن نُلجم مثل هذه الرغبات المؤلمة؟ ولمَ نُلجمها إن كانت فيها سعادتنا؟

أجابها في صوت أبحّ:

. لكنّها سعادة ملعونة تُنكرها الأديان وينهى عنها قانون السماء.. ولا يمكن تشريعها مهما رغبنا فيها.

هزّت كتفيها قائلة:

. خرقت هذه القوانين وما عدت أفهم جدواها.. ولا أقبل أن أعيش أسيرة لمنظومة دينية لم توضع إلاّ لشقاء البشرية.. أجل إنّي حرّة ، وجسدي اليوم يحتفل بحرّيته.

ضحك منها قائلا:

.مرحى للحرية.. ألا يمكن أن تكوني معتوهة؟

تقدّمت من الشرفة المطلّة على البحر وأجابت في شرود وقد غارت عيناها:

.معتوهة.. مريضة.. ربّما.. المهمّ أن أكتب.

لم يقلع عن سخريته وسألها ضاحكا بعد أن طوّقها من الخلف بذراعيه:

- وما سعر مؤلّفاتك يا كاتبة الجسد؟

- ما يجود به الجسد لا يقدّر بمال.. وتسعيره خطيئة فظيعة في حقّه.

نفضت يديه عنها قائلة:

.هيّا عليّ أن أعود إلى المنزل.
صعدا السيارة والصمت يخيّم عليهما. أطلقت نفسا طويلا غير أنّها لم تمنع نفسها من التساؤل لمَ لغة الجسد معطّبة لا يقبلها أيّ عقل بشريّ غير عقلها؟ واستغربت كيف تلبّد هذا النفور الصباحي بقلبها بعد نهم ليليّ مثير؟ أيمكن أن تتبدّل النفس من نقيض إلى آخر بين إمساء وإصباح؟ وأدركت بعد شيء من التفكير أنّها لن تبرأ وأنّها تفكّر في اتجاه معاكس لهذا العالم وأبدا لن تجد معه الوفاق فما تراه هي حقاّ يراه الآخر باطلا و ما تعتقده سعادة يراه الغير جنونا ومجونا.. فلا خلاص.. وانتبهت لصوت المطر ينقر زجاج السيارة لكن سرعان ما تحوّل الماء إلى برَد يكاد يهشّم الزجاج من فرط قوّته. نظرت إلى رفيقها فرأت جانب وجهه جامدا لا يوحي بشيء فقالت مازحة:
.وكأنّ السماء ترجُمنا..
صمت وبعد هنيهة سمعته يسألها:
.هل ترسمين كلّ الرجال.. أقصد كلّ الأجساد التي تشتهين؟
وجدت نفسها تبتسم للفكرة وقد راقت لها وراحت تسايرها:
. ألا ترى الأمر ممتعا؟ أظنّ الرسم يجمّل الفُجر ويشرّعه بين الناس ويحوّله إلى فنّ جميل.. تخيّلْ جسدا عاريا لا ترسمه ريشة.. يكون منبوذا خاويا أجوف لا حياة فيه ، لا قيمة ، لا

تاريخ ، لا جمال.. والريشة تجعله مشروعا قيّما شهياّ خالدا.. ولن يخفى عنك هذا أيها الرسام..
قاطعها قائلا:
.وهل كلّ الأجساد جميلة تستحقّ الرسم والتأريخ ؟
استوقفته في مكان قريب من منزلها وأجابت في غنج مقصود قبل أن تنزل من السيارة:
-لا فرق بين جسد وآخر إلاّ في اللّذة.. أيّها الرسّام..
غمز ذراعها بيده سائلا:
.متى أراك ؟
سؤال أشعرها بعقم الطريق الذي تسلك.. كلّ الطرق متشابهة وإن اختلفت منعرجاتها.. كلّها تفضي إلى هذا السؤال السخيف.. سؤال يلجم كلّ العلاقات ويجرّدها من كلّ الأبعاد ويجعلها متشابهة باهتة لا بريق فيها.. وأدركت أنّه رجل كسائر الرجال لا تعدو أن تكون المرأة لديه تحفة جميلة يحرص كلّ الحرص على امتلاكها ولو لفترة وجيزة..
فتحت الباب وغمزته بحاجبها متضاحكة:
. إنّ جسدي لا يجترّ مواضيع نصوصه وإلّا اهترأ وصار بائسا منبوذا.. لكن لو شئت ارسمه كي يبقى ذكرى جميلة تحنّ إليها ، وإن سُئلت عنه أنكر معرفته كي يبقى قيّما..
وسمعته يتمتم بغيظ مكتوم:

- أنت مجنونة حقّا.. لا تستحقّين رسما أو حياة.
وأطلق لسيّارته العنان تاركا إيّاها واقفة على حافة الرّصيف ترميها السماء بحبوبها وصدى كلماته ترتع في جوفها وتثير غبارا أسود أشعرها باختناق قاتل أدركت معه عجزها عن فهم النفس البشرية وخلق قيم أخرى غير القيم التي تأسّس عليها الكون.. وأنّ اللذّة الجسدية ولو صدقت أبعد من أن تكون سبيلا للسعادة الحقيقية وأقصر من أن تعيش بعض اللّحظات! لحظات وسرعان ما تفتر وتصبح ظلالا باهتة لا تعني شيئا.. والانغماس فيها قد يفقدك الحسّ كمن طفق يتذوّق أطعمة مختلفة للبحث عن ألذّها ففقد القدرة على التمييز بين مذاق وآخر وانتفت لذّة الطعام بين أضراسه وأصابه الغثيان من فرط الخلط.. نفس الغثيان الذي تشعر به هذه اللحظة وقد جمدت أطرافها ونال البرد من جسمها إلى حدّ التشفّي حتّى فقد الحسّ ولم يعد يطاله الألم..
وقفلت راجعة إلى البيت تسير في طريق خالية في بطء ملحوظ وقد غاب عنها الشعور.. أيّة لحظة هذه؟ لحظة فريدة لا توصف يجهلها معظم البشر.. أن تترك جسمك مستباحا يتلقّى طعنات السماء بصدر مفتوح ليس إلاّ حلاّ سحريا يشحنك بقوّة الوجود ويفتّت رواسب النفس المتكلّسة ويشعرك بولادة جديدة.. دخلت البيت لا تلوي على شيء

سوى أن تستحمّ بمياه ساخنة ترفع عنها هذا الفتور وتريحها من هذه الغشاوة الخانقة وليس في رأسها سوى سؤال يتيم يصهل بقوة واضحة: كيف تحيا من جديد؟

## في الغديّة..

رفعت رأسها عن الدفتر حين تسلّل نور ضئيل إلى فراشها.. كانت تحاول أن تدفع النوم عن عينيها.. لا تريد أن تنام.. ولّت ساعات اللّيل وولّى معها زمن النوم والجمود.. كانت صورة صفاء ثابتة أمام عينيها تحفّزها على المواصلة.. وحاولت أن تفتح جفنيها فلم تفلح. وبدأ الوجع يتسرّب إلى جسدها بالرغم منها ويثقل رأسها ويقيم فيه الدوار وتتخدّر أطرافها رويدا رويدا وصورة صفاء لا تفارق أركانها.. ويفتح الباب ويصل إلى أذنيها صوت قدمين خفيفين تقتربان من السرير ويتوقّف الصوت عند رأسها وتسري في جسمها حرارة تزيد ألمها حدّة.. تحاول أن تتكلّم.. فلا يصدر عنها سوى أنين يملأ أرجاء الغرفة ويرتدّ إلى أذنيها فيصل إليها غليظا أجشّ.. وشعرت بالإبرة تخز جسدها وقاومت مفعولها..

ورفض فكرها وجسدها الإذعان لطغيان النوم.. قد تفقد الحركة والحسّ لكن لن تنام.. ولا تسل عن قوّة التحالف بين الجسد والعقل.. قوّة لا يصمد أمامها شيء.. و خُيّل إليها في تلك اللحظة أنّ الألم قد خفّ و لم يعد له أثر وحاولت أن تتكلّم فإذا الصوت يبقى في داخلها مجلجلا هادئا يغريها بالسفر على

موجاته وتسحرها ذبذباته فتهتزّ طربا على أنغامه ولاحت لها نفسها ترتدي ثوبا فضفاضا بأهداب و أسافل طويلة وقد اعتلت هودجا جميلا يسير بها نحو شاطئ ضبابي صاخب يصمّ ضجيجه الآذان و لمحت بأقصى نظرها جسدا عاريا مكبوبا على وجهه قد لفظه البحر بين جذب ودفع.. ألقت نظرة إلى الوراء تبحث عن مغيث فلم تر خلفها غير الضباب فعادت بنظرها ترمق ذاك الجسد المتأرجح على المياه.. ودفعها الفضول إلى الالتحاق به.. وأطلقت لساقيها العنان وجسمها يتصبّب عرقا.. وأوقفها الإعياء واللّهاث ومكثت لحظة تحملق في ذاك الجسد العائم وقد انبتر رأسه.. وأنبأها إحساسها بأنّها تعرفه حقّ المعرفة.. وازداد لهاثها.. واحتقن وجهها.. إنّه جسد صفاء.. جسدي.. وتعلو الأمواج بغتة ويزداد ضجيجها بارتطامها على الصخور ويركبها الزبد اللّعين وهمتّ بابتلاع ما يوجد على شاطئها عندما صرخت بملء رئتيها وهرعت إلى جسدها واجفة وسحبته بجهد جهيد وضمّته إليها بكلّ عنف توقظه من سباته قائلة:

. قم بربّك.. انهض.. لا يمكن أن تكون ميّتا.. يا جسدي.. يا جسد حوّاء.. نفسي بدونك كأرض حرّقها المحلُ.. فغِثها.. لا يمكن أن تخصب إلاّ في كنفك..

وتفتح عينيها وترى الأشخاص المتحلّقين بسريرها أشباحا ضبابية تفوح منهم رائحة تدوّخها وتجعلها امرأة مريضة يعشّش الموت في أركانها. وتبتلع ريقها بعسر واضح و تصل إلى مسمعها أصوات مختلطة و غمغمة مزعجة أشبه بالبعبعة تعيقها عن التوغّل في حلمها ولم تتبيّن منها سوى بعض الكلمات المتناثرة.. ماذا أصابها؟ تحلم.. مسكينة.. تستبطن ذاتها.. تواجه جسدها.. دعوها لا تلمسوها.. جفّفوا عرقها..

وأضَبَّ المكان فأشاحت بنظرها عنهم وضجّت أذناها بصوت يأتيها من بعيد ويدنو منها تدريجيّا فتزداد قوّته ويتّضح كنهه.. صوت الزبد وقد صارت له رغوة كثيفة ترغو رغوا مخيفا أخذها قسرا إلى الشاطئ الضبابي.. إنها تركض والزبد يلاحقها على الرّمال ويدركها ويرغمها على الوقوف بعد أن تلبّد فوق جسمها وأثقل حركتها وتضوّعت منه رائحة البحر.. رائحة مربكة لا تعرف إن كانت تحبّها أو تكرهها..

ثمّ رأته يتجمّع ويستحيل إلى مخلوق عجيب زبديّ ، مارد قويّ لا يملك من الإنسانية سوى الصوت وسمعته يغرب في الضحك ويزمجر بوحشية الآدميين:

. صفاء.. تحملين في ذاكرتك أحلام طفلة دغدغها الحنين لساعة الخلق ، فنبذك الآخرون.. صرخت تعلنين ثورتك على النفس ، ارتددت عن دينك وكفرت بربّك وعبدت الشيطان

وصلّيت يوم السبت على أجراس كنيستهم.. اضمحلّت فيك شمس الأصيل اضمحلال الحلم بعد الخيبة ، تتقلّب نفسك في رحى الزمان تحاول الانفلات من الفراغ.. كلّ ما فيك ثائر ، متمرّد ، ينذر بحدوث أمر رهيب..

يواصل أمام اندهاشها في شيء من الازدراء:

. كان عليك أن تملئي فراغك وتفيقي من غيبوبة الانتشاء وتهشمي إطار الشبقية الذي أطّرت به ذاتك الجانحة.. كان على الدمع أن يترقرق في عينيك لتخصب روحك وتصير نديّة ، وعلى صوتك أن ينحبس داخلك كي يعود إليك دينك ومجدك وهواك.. وربّما جسدك..

زحفت رجليها إلى الوراء والرمل تحتها يزداد برودة وأشارت إليه بسبابتها:

- من أنت ؟ وماذا تريد منّي ؟

- أنا شيطانك أريد أن أرسم عند قدميك حدود قدرك وأنير لك السبيل يا صفاء..

- لست صفاء.. صفاء مخلوقة ورقية تفاقم مرضها ولا أريد أن أكون مثلها.. أحبّ أن أبرأ..

- أنتما وجهان لنفس واحدة.. أنتِ صفاء الواقع و هي صفاء الحلم.. وأنا رغوة القدر بينكما.. ولن يبرأ أحدكما ما دام الآخر

مريضا ينقل إليه عدوى المرض.. وأنت المريضة.. وحكم المريض الإفراد..
كيف لها أن تفلت من براثنه ، إنّه قدرها انتصب أمامها قاضيا قاسيا وجلاّدا شديدا.. ما أقسى حكمه وما أعسر حسابه.. قدرٌ أدركت معه أنّ العقل لا يرحم وأنّ السؤال لا يموت..
ويتبدّد الضباب شيئا فشيئا وتعيدها رائحة العقاقير إلى الواقع وتقاوم لفتح عينيها.. ولم تحرّك ساكنا كما لو أفاقت من غيبوبة طويلة.. وتعود إلى أجواء الغرفة.. وتستمع.. ويصل إليها صوت دافئ أثار فيها الشوق والحنين.. صوت زوجها الشاعر عمر وهو يقول:
.دكتور حسن ، أظنّها بدأت تفيق..
وتنجح في فتح عينيها وتسمعه يواصل:
.أخيرا.. عدت إلينا يا صفاء.. كنت تهذين..
حدّقت فيه في إعياء متمتمة:
.صفاء.. أنا ؟
ويمسك بيديها ويقبّلهما وعيناه تشعّان سعادة أخافتها فأردفت في صوت ضعيف:
.الدفتر.. أين الدفتر ؟
سألها عمر مستغربا:
-أيّ دفتر ؟

ونظرت صفاء إلى طبيبها عند رأسها فهزّ رأسه هزّة فهمت مغزاها..
وشعرت إثر ذلك بشيء من الغثيان فعاودت إغماض عينيها وارتدّت إلى باطنها مجدّدا فسمعت قهقهات الشياطين تتجاوب داخلها ونفسها تنوح مستغيثة:
"الرحمة ، الرحمة" واختلطت عليها الأصوات في جوفها وقد علا صهيلُها وواصلت هذيانها حتّى توقفت فجأة عن الكلام وحُبس صوتها داخلها وافترّ فمها عن ابتسامة غريبة حتّمت عليها قراءة المصير..

تمّت

# كتابة اللذّة...أو لذة الكتابة في صهيل الصّمت

د. نجوى الرياحي القسنطيني

كلّية العلوم الإنسانية والاجتماعية 9 أفريل – تونس

**" يا جسدي.. يا جسد حواء نفسي بدونك حرّقها المحلُ.. فأغثها "**

على هذه الاستغاثة تنغلق رواية **صهيل الصمت** والرواية البطلة تلملمُ بقايا جسدها المنبتر وتصحّح مسار الرّوح منها والجسد.

وقد مزّقت فكرها المكدود حيرةٌ لا قبل لها بها لخبطت مساراتها وهزّت وجهاتها بين سطوة العقل منها وجموح الجسد وطابوهات المجتمع حتى مرضت النّفس وفاضت أعراضها فلزمت المرأة المستشفى لستّة أشهر تكتب خلالها عن امرأة اسمها صفاء مفتولة عن الآخرين باللّذة حوّلتها صولات الجسد المحموم وجولاته إلى عاهر. وقد كانت المرأة في المصحّة مخدّرة الجسد مكدودة وتحسب نفسها إذ تكتب عن اللّذة وعن صفاء ترضي شهوتها وتشفي غلّتها.

أ يمكن اعتبار ذلك الموضوع الأساسي في رواية إلهام بوصفارة **" صهيل الصمت "** وفي الرواية من كلّ شيء اثنان متفاحشان ثالثهما الشيطان يشيان بالمصاولة والعار.. عقل وجسد، رجل وامرأة، عهر وصلاة، فرد ومجتمع، زيف وحقيقة، واقع وحلم، صحوة وخَدر، حبّ وكره، لذّة وألم... فهي أشياء أبت إلاّ أن تحيا في نص بوصفارة مرّة وتقتتل فيه أخرى. هذا ما ينطق به نص الرواية بشكل ينبّه إلى أهمّية هذا النصّ القائم في كثير منه على ظاهر من الكلام وباطن يجعلان تركيبه طريفا تتوالد معانيه وتتشابك رموزه. فبوصفارة في روايتها هذه تنوّع في أبعاد الحكاية شادّة إيّاها إلى الحياة من جهة وإلى الموت من جهة أخرى. فبين مستويات نفسيّة وفكريّة وعاطفيّة وجنسيّة واجتماعيّة وسياسيّة تتعدّد علائق الحياة والموت حتّى يصير بعضها محكّا للآخر حاملا له متلوّنا به.

أمّا سرّ الحكاية فهي اللذّة العارمة حدّ الشبق، لذّة الجسد يكتب نشوتَه ويُعلن جموحه وشهوته. تقول صفاء ونفسها مفتوحة بشراهة للخمر والحبّ وعناق البدن **" جسدي الرّاغب يكتب ويصنع لرغباته تاريخا ".** وكتابة الجسد أو كتابة اللّذّة هذه تتصادى مع لذّة الكتابة عند بارت (Roland Barthes). أ لم يقل إنّ الكاتب إذ يتملّك لغته يتملّك جسد نصّه فينقل عيره نوازعه وحركات جسده المفلتة من كلّ قيد وشرط؟ ويعني ذلك أنّ إلهام بوصفارة تكتب روايتها الأولى **صهيل الصمت** وعيناها على

نصوص غيرها ذلك ما يفسّر إحالاتها على الفلاسفة بول فان وشلي وديكارت وعلى القرآن ولسان العرب والشعر وعلى الخطاب السّياسي من جهة والسيكولوجي من جهة أخرى. وإن كانت إلهام بوصفارة تعضد خطابها الرّوائيّ بمثل هذا التناصّ مع الخطابات الأخرى ممّا يكثّف دلالاته ويوسّع أبعاده، إلّا أنّها تجد في ذلك ما يجده صاحب شيء أعيد إليه بعد أن ضاع منه أو أوشك. تقول في التصدير لروايتها **" ربّ عبارة رائعة أقرؤها في كتاب فإذا بي أمتلئ نشوة عجيبة وطربا غريبا تشوبهما لذعة الحسد كما لو كنت صاحبة العبارة انتُزعت منّي سطوا "**

ولمّا كانت لكلّ الأشياء حكاياتها الصّغرى أو الكبرى لم تكن اللّذّة في **صهيل الصمت** مشدودة إلى نشوة الجسد ومتع الحسّ وحدهما وكانت إلى كسر قيد الرّوح وفكّ حبس العبارة أقرب.

ونصّ الرواية ليس مشهدا "بورنوغرافيّا" موسّعا لأنّ الكتابة " الإيروتيكيّة" لا تنفصل فيه عن اقتحام مجاهل المعرفة وبلوغ أقصاها. فهل دفعت حوّاء إلى الأكل من الشجرة غير رغبتها في المعرفة وفي اختبار الأشياء؟

فلا فرق هنا بين إزاحة " طابوهات الجسد " وإزاحة "طابوهات الفكر " لذلك يصحّ في اعتقادنا اعتبار **صهيل الصمت** ذات سمات خلافيّة من حيث كيفيّات إنتاج المعنى ومن حيث الآداء الفنّيّ وخاصيات تركيب الحكاية وتشكيل السّرد.

وهي حكاية من قصّتين ضُمّنت الواحدة منهما في الأخرى بشكل مغر باستكشاف العلائق وضروب التوافق والتخالف بينهما في أنماط الخطاب وأشكال ترتيبه وتوزيع الأحداث والدّلالات: فكيف تعيش المرأة المقيمة في مصحّة حياة المرأة الثانية صفاء بمجرّد كتابتها؟ كيف يلتقي الحرمان بالانعتاق والألمُ باللّذّة والخدرُ بالصحو والخيالُ بالواقع عبر الكتابة؟

ولمّا كانت الكتابة في رواية بوصفارة تنشأ بين ثنايا متخالفة متضادّة سعت صاحبتها إلى إظهار الألم مقرونا بلذّة الشهوة والانعتاق وإظهار اللّذّة مقرونة بألم الكبت والحُبسة.

وفي مثل هذا تتجلّى أهمّية الرواية باكورة أعمال إلهام بوصفارة: انقلاب الأشياء على ذواتها وانقلاب الذّوات على أشيائها. فالسّؤال **"عاش مخاضا عسيرا "** والإجابة بدل أن تفكّ مغالق السؤال ظلّت **"خرساء بكماء"** والأشياء الصامتة والساكنة بحكم مواقعها أو طبائعها تصبح مدوّية متحرّكة. فالصمت **"يحادث" و "يخطّ عباراته"** وهو **"جائع يريد الكلام "** وللذاكرة والوهم والأفكار صهيل إذ **" قد يتغيّر كلّ شيء في لحظة إذا صهل الصّمت وخلخل قضبانه وانطلق بعيدا عن عجزه ".**

هو نطق الصمت إذن بل صراخه أو صهيله كما تذكر الكاتبة منذ العنوان والافتتاحيّة متعجّلةً كشف محتوى روايتها وتوجّهاته فيها. وتقول بوصفارة في ذلك **" هكذا كانت حكايتي مع الكتابة "**

فروايتها في وجه من وجوهها ـ مثل كلّ رواية ـ تدخل إلى سيرة الذات من حيث تخرج إلى سيرة الشخصيّات الورقيّة كما تقول بوصفارة تمثّلا ببارت. والسّيرتان معا تستبدلان انحباس الصّوت والعبارة واختناق الشهوة وارتداد الفعل بصمت " يُذهب الثلج المتراكم على سطح الذاكرة ".

إلّا أنّ بوصفارة تجعل للقارئ كذلك حكاية مع الكتابة في روايتها فتدعوه إلى الخروج من كهف الصّمت وخوض المغامرة" ممّا يعني أنّ تجربة الكتابة عند بوصفّارة تتدبّر ذاتها ومقاصدها وتقول بصفتها فعل انتشاء يدغدغ فيك "الحسّ" وفعلَ كشف تجربة المبدع والقارئ.

وربّما تضخّمت هذه التجربة في **صهيل الصمت** إلى حدّ كانت معه الكاتبة تطلّ من بين مقامات اللّغة والأسلوب تحلّل وتعلّل في لغة تقريرية مباشرة وقد بدا لنا أمام كثرة ما أطنبت فيه إلهام بوصفارة من تعليقات وتحليلات موصولة بالفلسفة أو بمعتقدات شعبيّة أو بأغان لبنانية أو قصائد غزلية ووطنيّة أو آيات قرآنيّة أنّها مسكونة بهاجس المعنى وكشفه في أدقّ تفاصيله. فروايتها تخبر عن شياطين الذات بقدر ما تخبر عن شياطين أمريكا وأوجاع العرب. لذلك يعدّ من مكامن الطرافة فيها جمع صاحبتها الخصيصة المرجعية المتجذّرة في واقعنا والخصيصة الفنّيّة غير المفرغة إلى ذلك المعنى. وهو الدّليل على أنّ نصّ رواية بوصفّارة " يعي" حدث ظهوره للقارئ و"يخطّط " له. فمن **"الغسق"** إلى ما **"بعد هزيع اللّيل"** إلى

**"شطر اللّيل"** إلى **"الغبش"** إلى **"السحر الأعلى"** إلى **"الفجر"** **ثم** إلى **"الغديّة"** تمتدّ عناوين فصول الرواية السّبعة عبر مواقيت تؤرّخ لولادة النص الروائي ولادة بطيئة متمهّلة تُغوِّص الرواية في ظلمة الغسق القاتمة وتخرج في الأوّل إلى شيء من البياض يخاتل الظلمة حتّى لا يذر منها سوى طرف ثم تخرج به ثانية إلى الضوء " ضوء ينير...درب الحقيقة " فكاتبة الرواية هنا و الآن تستدرك على عبث الآخرين بكرونولوجيّة الزمن الرّوائيّ وخطّيته فتجعل ذلك الزمن و قد علّقت به مهمّة توليد النص وإنتاج المعنى متعاقبا متسلسلا مترتّبا. فلعلّ **صهيل الصمت** من هذه الناحية تعريض بمن شقّت عليهم الحداثة فتعنّوا أماراتها علّهم يرتدّون إلى بعض ما كان للنصّ الروائي من وضوح.

والوضوح في **صهيل الصمت** لا يعدم طرافة البنية الدّاخلية التي تنتظم الملفوظ السرديّ. فبعض فصول الرّواية تفتتح بما يشبه البدايتين. بداية أولى محورها شخصية كاتبة تعيش بعض الأحداث وتروي بعضها الآخر وبداية ثانية محورها شخصية تعيش الحدث وترويه عنها الشخصيّة الأولى. فكأنّما يتعسّر خروج الحكاية من رحم الكلمات تارة ومن رحم الذّاكرة أخرى. إنّما هي تقنية حديثة في تركيب السّرد تجعل شكل بناء الحكاية دالّا في ذاته على موضوعها مفرزا للمعنى.

فالمرأة الأولى الكاتبة تظلّ إلى قريب من منتهى الرواية نكرة لا اسم لها ولا وجه سوى وجه الحيرة والضّياع. أمّا

المرأة الثانية صفاء فجسد يندفع وشهوة تتوثّب ومتع تتدفّق. ولا وسط عند الأولى ولا اعتدال عند الثانية. ولا سكون لهما ولا رضا. لذلك يقلق الفكر فيهما ويتكدّر القلب ويضطرب الجسد حتّى مشارف الجنون فـ**"مرحى بالجنون"**.

ولا فاصل بين المرأة الأولى والمرأة الثانية ولا اختلاف إلّا ما يكون بين الواقع والخيال وبين الظّاهر والباطن. لذلك تضادّ المرأةُ المرأةَ في **صهيل الصّمت** ولا تناهضها. وهي وجه منها ومرآة لها حتّى أنّه صاح في أعماق المرأة النّكرة صوت يردّها إلى ذاتها" **أنتما وجهان لنفس واحدة أنت صفاء الواقع وهي صفاء الحلم"**

وكانت صفاء الواقع وقد ربضت صفاء الحلم في ركن قصيّ منها مترامية الأطراف متعدّدة الصور متراكبة الدّلالات كثيرة الأبعاد والرّموز. وهو أمر على جانب كبير من الأهمّية في رواية بوصفارة الأولى هذه. فهل هما امرأتان في امرأة واحدة تفيض الواحدة حياة حتّى الموت والأخرى موتا حتّى الحياة؟ فما صلة تجربة الكتابة بذلك وقد مثّلت تيمة أساسيّة من تيمات النصّ الرّوائي وما قدرتها على هتك أغوار الذات و مغالق الفكر و خبايا الجسد؟

و ما سرّ اختفاء الدفتر الذي حوى حكاية صفاء فهل اختارت بوصفارة أن تمحو بجرّة قلم صفاء هذه أم هي ألجمتها و دسّتها في ثنايا المرأة الأخرى علّ هذه تأنس

لذاتها من جديد؟ و هل يمكن لذات تباغض صاحبها وتفيض عنه أن تعود إليه حقّا؟
هذا هو السؤال الذي سيقرع أسوار ذاتك حين تقرأ **صهيل الصمت**

# الهمس المدوّي في صهيل الصّمت

الد. محمّد القاضي

كلّية الآداب والفنون والإنسانيّات جامعة منّوبة

اكتشاف جديد هذا الذي ينفتح لنا عبر صفحات صهيل الصمت التي اقتحمت بها إلهام بوصفارة جنسا أدبيّا وعر المسالك متّخذة العدّة اللّازمة لذلك، فجاء نصّها على قدر من الفنّ قلّما يتوفّر لمن يخوض هذا الغمار أول مرّة ولعلّ التصدير الذاتي التفسيريّ الذي به انفتحت الرّواية أن يساعدنا على إدراك السّرّ من أسرار ذلك. فالمؤلّفة تنطلق في إنشاء روايتها من نصوص غيرها التي تنال منها إعجابا تشوبه – كما تقول – " لذعة الحسد كما لو كانت صاحبة العبارة قد انتزعت منّي سطوا " وكأنّنا بإلهام قد تفطّنت بحسّها الأدبيّ المرهف إلى أنّ الكتابة هي على الحقيقة إعادة الكتابة وأنّ الرواية ملتقى نصوص وأصوات.

هذه الرواية قصّتان في قصة بينهما ضرب من التوازن المقلوب: للأولى البداية بالاحتشام وللثانية البقيّة بإسهاب. وقد بنيت على سبعة فصول جاءت في صورة إشارات

زمنيّة متتابعة تقودنا من الغروب إلى الشروق ويستبدّ اللّيل بسائرها. فنحن ننطلق من الغسق إلى انقضاء هزيع من اللّيل إلى مرور شطر من اللّيل إلى الغبش إلى السحر الأعلى إلى الفجر إلى الغديّة.
هذه المسيرة اللّيليّة نقطعها من خلال امرأتين إحداهما كاتبة والأخرى موضوع للكتابة.
ومن ثم يقوم كلّ فصل على بنية التضمين. تظهر في بدايته امرأة لا نعلم عنها شيئا تتخذ في سريرها وضعيّة الكاتبة. وكلّما تقدّمنا في الرّواية ازددنا بهذه المرأة معرفة. فهي تعاني من حالة سيكولوجية معقدة ناتجة عن الصراع بين رغبات الجسد ومحرّمات المجتمع وتتعاطى عقاقير مهدّئة. وإذا كانت هذه الشخصيّة الكاتبة تشدّ النّصّ إلى زمن الرواية فإنّ المرأة الأخرى "صفاء" تحيلنا إلى زمن المغامرة المتحوّل، إذ تمرّ بطور الطلب من الجامعة ثم تعيّن أستاذة. هذه المرأة ثائرة متمرّدة على السنن، تريد أن تتحرّر من القيم الجماعية وأن تهب جسدها حرّيته المطلقة. ومن ثم فإنها لا تستكين إلى الزواج من "عمر" على تعلّقها به وتعلّقه بها. ورغم القطيعة بينهما تحاول الاتّصال به مجدّدا ثم لا تلبث أن تنفصل عنه وتدخل مغامرة جديدة تطلق فيها العنان لجسدها فتقع في المحظور الأخلاقي والاجتماعي والدّيني.
إنّ أهمّية هذه الرواية تكمن أولا في خروجها عن النهج التقليدي في القصّ وسعيها إلى ركوب الصعب. فنحن نسير معها على خطّين زمانيين متباعدين ونرود مجالين

مكانيين متقابلين ونتردّد بين ذاتين لا تبدو الصلة بينهما جلية. ولكنّ المؤلفة تقودنا بيسر إلى ضرب من اللّقاء غير المتوقّع أو قل التطابق التماهي بين الشخصيتين فنخرج من تلك الفُرقة إلى الالتحام، وإذا بصَمْت "صفاء " على سرير المرض يغدو صدى لصهيل " صفاء " المضطربة في الأرض والمتقلّبة بين القيم والنواميس.

إنّ طرافة هذه الرواية تستمدّ من كونها تعالج قضيّة الكتابة وقضية الذات بين جموح الرغبة وأغلال المجتمع والعقل. لقد أحسنت إلهام بوصفارة مسيوغة حين اختارت لبطلتها مهنة أستاذة فلسفة ممّا جعل إحالاتها على بول فان وشيلي وديكارت وابن سيرين إضافة إلى الشعر والغناء مقبولة. وكذا الشأن بالنّسبة إلى الخطابات التي تتفاعل في النص. فنحن واجدون فيه خطابا فلسفيّا مداره عن الوجود والعقل والمعرفة والشعور والسعادة والإيمان واللّذة والألم وخطابا سياسيّا فيه حديث عن العراق و فلسطين وسوريا وإدانة للمحتلّين الأمريكيين و البريطانيين والصهاينة وتعريض بالأنظمة العربيّة المهادنة والضالعة في العدوان والتآمر وخطابا اجتماعيّا يعالج قضيّة العلاقة بين الفرد والمجتمع ومنزلة المرأة والمنظومة الأخلاقيّة وحدود الحرّية الفرديّة وخطابا نفسانيّا أكّدته هويّة الكاتبة الراوية التي تعاني من انفصام في الشخصيّة تولّد من التصادم بين ما كانت تؤمن به وما تقرّه الهيئة الاجتماعيّة.

إنّ رواية "صهيل الصمت" بهذا المعنى جمع من الأصوات والخطابات قادتها المؤلّفة بدراية ومهارة

وبراعة حتّى إنّ هذا الكهف الذي تزجّ بنا فيه منذ البداية يأخذنا بوتيرة سريعة عبر انطواء اللّيل وظهور تباشير الصباح إلى شيء من النّور الذي يشعّ على الشخصيّة المركزيّة التي انطمست في عينها الرؤية فيجعلها تدرك أخيرا ما لم تك تدركه أوّلا.
فنصّ بوصفارة يتنزّل في صميم المشغل الحضاري الذي يحوم حول موقعنا من التاريخ. ولئن كانت رواية "صهيل الصمت " تعبيرا عن عجز البطلة عن تحمّل تبعات أفكارها ومصيرها فإنّها أيضا تعبير عن المأزق الحضاريّ الذي نمرّ به ونعاني فيه من فشل المشروع السلفي وفشل المشروع التغريبي معا.
إنّ علامات الانهيار الظاهرة فرديّا وجماعيّا لا تخفي بصيصا من الأمل في التعافي والرواية بهذا المعنى محاولة لإنطاق الصمت بقول ما لا يقال ومحاولة لجعل الكتابة مجالا للتجريب والمجاوزة وخرق التخوم.

مقالات مشابهة:
http://www.al-binaa.com/archives/article/189731#

https://youtu.be/uVuV_gaU8aM